القسم الثاني
(٢)
ميـــــلاد نـــبي

وتحت هذا العنوان بالذات يفرغ رودينسون كثيرًا من سمومه ، ويكثف كثيرًا من طعونه وافتراءاته ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو كما سنرى لا يرعوي عن اتخاذ أى وسيلة ، يراها فعالة لينال من شخصية النبي العظيم ، فهو يطبق بعنف علم النفس المادي الإلحادي ليصل إلى تقرير فريتة بأن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كانت غير سوية ، لذلك فقد كان محمد ميالاً إلى العدوان وإلى الانتقام من أعدائه ، كما كان في نفس الوقت ميالاً إلى إشباع رغباته الجنسية ، ساعياً بشتى الوسائل إلى تحقيق أبعد طموحاته عن طريق الدين من جانب ،والقوة من جانب آخر.

بعد أن ذكرنا مصادر رودينسون التي غزت اتجاهه وساعدته على نسج كتابه هذا الذي بين أيدينا على هذا النحو غير العلمي ، والمتطرف في نظرته للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام. ، وبعد أن تكلمنا عن مقدمة كتابه نتناول هنا آراء رودينسون في صاحب الدعوة عليه السلام

اختار رودينسون هذا العنوان بمكر بليغ ، إذ أن عنوانه هذا يعني أن محمداً إنما كان نبيًا مثل هؤلاء الأنبياء الكذبة الذين ظهروا في أماكن كثيرة من العالم وفي عصور مختلفة من الزمان. فمحمد هو نبي وليس النبي . إنه يشكك في صحة الأحاديث والروايات الخاصة بطفولة محمد صلى الله عليه وسلم ونشأته المبكرة ويعتبرها أساطير موضوعة وموضونة بغرض إظهار محمد صلى الله عليه وسلم في صورة المسيح عليه السلام ، وإعطائه نفس الوضع الذي كان لعيسى بن مريم (P. 48).

ولكي يؤكد رودينسون تأثير البيئة في تكوين محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وأن القرآن والإسلام إنما كانا صدى لتلك المؤثرات المادية والبشرية ، تكلم عن البيئة

التي نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم في الفصل السابق (ص١-٣٧) وهو هنا يمهد لهذا الموضوع ، «ميلاد نبي» ، بنفس الفكرة . فيقول أن نوع التربية التي نشأ عليها محمد ، ونوع البيئة التي درج فيها لا يمكن بحال أن تجعله بمعزل عن ممارسة الوثنية والتأثر بها. ولتأكيد هذا المعنى الذي تخيله الكاتب فإنه يشير إلى بعض الروايات الضعيفة التي أوردها بعض المؤرخين المسلمين ، دون تمحيص ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان قد قدم قربانًا للعزى ، أحد أصنام قريش ، ويسوق رودينسون كلامًا عزاه جولوم Guillaume إلى ابن إسحاق والذي جاء فيه أنه صلى الله عليه وسلم قد قدم لحمًا ذبح لصنم لأحد الرهبان العرب فوبخه هذا الراهب العربي الموحد ، ولم يأكل منه[1]. هذا مع أنه من المقطوع به بين المسلمين ، ومن المجمع عليه بين المؤرخين أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يقدم قربانًا لصنم البتة. ومن دراسة سيرته ونفسيته ، وتوجهاته صلى الله عليه وسلم يتبين لكل ذي لب ، أو مسكة من عقل أن النبي كان حربًا على الأصنام ، والآلهة المزعومة بكل أشكالها وصورها . فلم يحضر محمد قط محفلاً ولا مجمعًا يعظم فيه غير الله ، سواء قبل البعثة ، أو في بدايتها يعني في الوقت الذي كان يتلمس فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كل الطرق لهداية قريش ، لقد ساومه الكفار وأغروه بكل ما تصبو إليه نفوس الطامعين ، والطامحين من زهرة الدنيا وزينتها ، ومتاعها وعَرَضِهَا ، فلم يحفل بعروضهم ولم يقبل منهم إلا أن يشهدوا بوحدانية رب العالمين وأن يعبدوه ويذروا ما هم عليه من الشرك والوثنية .

ومن حديث بحيرى الراهب ، الذي يعتبره الغربيون من قبيل الخرافات أن بحيرى لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأدرك أنه هو نبي الزمان ، وكل زمان ، قال له فيما قال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى - إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: « لا تسألني باللات والعزى شيئًا فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له صلى الله عليه وسلم: «سلني ما بدا لك» . فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته [2].

وعن عمار بن ياسر أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل أتيت في

---

(١) سيرة ابن هشام (بيروت، دار الجيل) ج١ص٦٦، ابن الأثير، النهايد (بيروت ـ المعارف)ج٣ ص٢٨٥.

(٢) ابن هشام سيرة، ج١ ص١٦٦، وابن الأثير ، النهاية ج٢ ص٢٨٥.

الجاهلية شيئًا حرامًا ؟ قال : لا ! وعن ابن عباس قال : «حدثتني أم أيمن قالت : كان بوانة صنمًا تحضره قريش تعظمه وتنسك له النساك ، ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يومًا في السنة ، وكان أبو طالب يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب ، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن « إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا» . فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبًا فقلن «ما دهاك؟» قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» ، فقلن «ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذي رأيت ؟» قال «إني كلما دنوت من صنم منها يَمَثَّلُ - يتمثل - لي رجل أبيض طويل يصيح ، وراءك وراءك يا محمد . لا تمسه ، قالت « فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ » . وفي رواية قال «زيد عن محمد بن عمرو فوالله ما استلم أي (محمد) صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أنزل عليه» . ومن حديث جبير ابن مطعم قال : «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على دين قومه . وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقًا من الله عز وجل له» قال البيهقي معنى قوله : «دين قومه» أي ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام و لم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائمًا »[1].

لم يتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو واضح من هذه الأدلة ، وغيرها كثير ، بعبادات العرب الوثنية وعاداتهم الجاهلية أما ما كان عندهم من مكارم الأخلاق ، ومبادئ دين إبراهيم ، فقد مجده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به ودعا الناس إليه . وكانت عناية الله تكلؤه وتحفظه وتصونه من أوضار وأقذار الجاهلية لما أراد الله به من كرامته ورسالته . وعندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ الرجال كان أيضًا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقًا ، وأكرمهم حسبًا ، وألينهم عريكة ، وأبرهم جوارًا ، وأعظمهم حلمًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأعظمهم أمانًا ، وأبعدهم من الفحش والفجر وذميم الأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزهًا وتكرمًا حتى أنه لم يعرف بين أهله إلا بالأمين وذلك لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة [2].

---

(١) ابن هشام، سيرة ج١ ص١٦٦ وما بعدها وابن الأثير النهاية، ج٢ ص٢٨٩، وشمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام (مكتبة القدسي ١٣٦٧) ج١ ص٥٠ - ٥١) .

(٢) نفس المصادر .

دعوى المستشرق أن محمدًا كان من الحمس وأنه كان قارئًا كاتبًا :

ويزعم مكسيم رودينسون كذلك أن محمدًا كان من الحمس ، وأنه كان يشاركهم في احتفالاتهم وأنه ـ عكس ما يدعي المسلمون ـ كان يعرف القراءة والكتابة ويزعم رودينسون أن المسلمين قد بنوا وهمهم في عدم معرفة محمد بالقراءة والكتابة على تفسير خاطئ لكلمة قرآنية، يعني «النبي الأمي» (الأعراف ١٥٧ ، ١٥٨) وقبل أن نرد على هذه الفرية لا بد أن نبين أولاً : معنى الحمس ، الحمس يعني الأشداء الأقوياء ، أو المتطرفين بلغة العصر ، والحمس لهم معتقدات خاصة بهم ابتدعتها قريش إما في عام الفيل أو بعده ، إذ أنه ليس لدينا ما يرجح أحد التاريخين على الآخر . وتقوم عقيدة الحمس على أنهم ما داموا هم أولاد إبراهيم ، وأهل الحرم ، وولاة البيت ، وسكان مكة فليس لأحد من العرب من الحق مثل ما لهم ولا له مثل منزلتهم ، وعليه فقد اتفقت قريش على أنهم لا يعظمون شيئًا من الحل كما يعظمون الحرم ، لأنهم رأوا أن في هذا العمل مدعاة لاستخفاف العرب بحرمتهم إذا عظموا من الحل مثل ما يعظمون من الحرم ومن ثم تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها . ولكنهم لا ينازعون في أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام . ولم يمنع الحمس غيرهم من العرب من تعظيم هذه المشاعر بل إنهم حرموها على أنفسهم فقط [١]. وقد أضاف الحمس إلى معتقداتهم أنهم استحدثوا لهم طريقة خاصة بهم في الطواف حول الكعبة إذ أوجبوا الطواف في ثياب خاصة ، وفي حالة طواف أحدهم بثياب الحل فإنه ينبغي أن يلقي الطائف بثيابه تلك ، ولا يلبسها بعد ذلك . وكانت هذه الثياب تسمى باللقى . كما أجازوا الطواف للرجال عراة [٢]. هذا هو باختصار معنى الحمس وهذا هو ما كانت تفعله قريش بدافع من هذه العقيدة ، ولم يرد قط أنه صلى الله عليه وسلم شاركهم في شيء ، أو تأثر بمعتقداتهم من قريب أو من بعيد . بل إن الحمس ظلوا على حالتهم تلك حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم فأحكم الله له الدين وأبان له معالم الشريعة ، وشرع له سنن الحج بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٩٩) . الخطاب لقريش ، والناس في الآية هم العرب ، رفعهم صلى الله عليه وسلم في سنة الحج إلى عرفات والوقوف

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

عليها والإفاضة منها . ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة» (الحديث رواه الخمسة) ومعنى الحج عرفة أي الحج الصحيح هو حج من أدرك يوم عرفة ، وأحل الله للناس ما حرمته الخمس عليهم بقوله تعالى ﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾ (الأعراف ٣١) .

فوضع الله تعالى بالإسلام أمر الخمس ، وما كانت قريش قد ابتدعت منه للناس . ومما يكذب الرواية التي اعتمد عليها رودينسون واهتبل بها ما أورده ابن هشام في السيرة تحت عنوان « الرسول صلى الله عليه وسلم يخالف الخمس قبل الرسالة» وروى أنه صلى الله عليه وسلم رؤي وهو واقف على بعير له بعرفات مع الناس (يعني من غير الخمس) من بين قومه حتى يدفع معهم منها (أي ينزل من عرفات) توفيقًا من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم . وجاء في رواية أخرى أن جبير بن مطعم قال حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم واقفًا بعرفة مع الناس ، « هذا رجل أحمسي فما باله لا يقف مع الخمس ؟». ومعنى قوله رجل أحمسي يعني أنه من سكان الحرم فقط ، وليس معناه في كلام جبير أنه صلى الله عليه وسلم كان على مذهب أو عقيدة الخمس[1] . وإذا كنا قد أثبتنا بالأدلة القوية أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن من الخمس عقيدة ، ولا طريقة ، فإنه في نفس الوقت لم يتأثر قط بالجوانب السلبية لبيئته ، كما يزعم رودينسون. أما عن دعواه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة ، وأنه تأثر بالحركة العلمية للبيئة التي كان يعيش فيها ، فإنه لم يكن يوجد في مكة بيئة علمية يتأثر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن معرفة القراءة والكتابة بالرائجة بين العرب حتى يمكن أن يتعلمها الرسول صلى الله عليه وسلم بسهولة كما يخيل الكاتب الفرنسي . ولو تعلم الرسول لكان الله ورسوله قد أخبرانا بذلك فالعلم والتعلم شرف وكمال ، وهو من مقتضيات العظمة في البشر ، كما أنه في نفس الوقت لا يتعارض مع الوحي فكل الأنبياء تقريبًا بعثوا قارئين كاتبين ولم يقدح ذلك في نبوتهم ، أو يخدش عصمتهم . ثم إن الله تعالى لما نفى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تعلم الخط قيده بقوله ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

---

(١) نفس المصدر ١٨٧ وانظر أيضًا الشوكاني ، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (القاهرة -المكتبة التوفيقية) ج٥ ص٥٩.

الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى ٥٢). ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(العنكبوت ٤٨) . فهذا ينفي بالكلية وجود بيئة علمية ، أو دور للتعليم بمكة كما يزعم المستشرقون ، بل أن المبطل فقط هو الذي كان يشك في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد أتى بالقرآن تأليفًا لا توقيفًا ، إبداعًا لا وحيًا . أما المنصفون فلم يقولوا بهذا لأنهم أدركوا أن كلام الله لا يشبه كلام البشر، لا علماءهم ولا عوامهم ممن تعلموا بالخبرة والاحتكاك ، القرآن كما هو واضح هو النور الذي انبثق من عين الوجود الإلهي وسار مسار النور الطبيعي إلى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو كنور الشمس ونور القمر والنجوم لا فضل لأحد في إنشائها وتسييرها ، وكالروح لا يدري أحد كيف تدب في الأجساد وتسري في الأنحاء ، ولكنه يرى آثارها شاهدة ومشهودة في الخلق وفي السيرة . وفي قرينة أمية النبي صلى الله عليه وسلم ألفت النظر إلى كتاب « محمد نبي الديانة الإسلامية » ، لكاتبه رويستون بايك Roysten Pike (لندن ١٩٦٢) والذي كان يدرس لطلبة وطالبات المدارس الإنجليزية، حيث جاء الكاتب بصورة لكتاب في قرية كتب تحتها هذه العبارة « صورة لمدرسة في القرية تشبه تلك التي كان محمد يتعلم فيه»[1] وهذا الكتاب الأخير في مجمله يحمل نفس الجراثيم التي يحملها كتاب رودينسون وكتب كثير من المستشرقين ،وتحمله كذلك مقدمات وتعليقات المترجمين الغربيين لمعاني القرآن الكريم.

وقد ذكرنا فيما سبق أن من الغربيين من أنصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلم بعظمته الفذة وحكمته الفريدة ، واعتبره النموذج الأمثل للإنسانية الذي استطاع برغم الظروف القاسية ، والقلوب المتحجرة أن يجمع العرب على التوحيد ، وأن يجعل منهم أمة تحمل دين الله إلى جميع أرجاء العالم،وأن يربط العرب بسائر شعوب العالم بصلات إنسانية وحضارية ومعرفية وثيقة بعد أن كانوا يعيشون في عزلة يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم .

رودينسون وحديث رعي الغنم :

يشير هذا الكاتب إلى حديث جابر الذي جاء فيه ؛ « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران نجتني الكباث»[2]. فقال : «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب»،

---

(١) انظر ص١٣ .

(٢) الكبث والكباث ، وهو الناضج من ثمر الأراك واحدته كباثة.

قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله قال : «نعم وهل من نبي إلا قد رعاها» (الحديث متفق عليه)

قال العلماء في شرح الحديث أن رعي الغنم يستلزم الحلم والشفقة والسياسة في تجميعها والسيطرة عليها ، ورعاية مصالحها وهذا في حد ذاته يعلم الصبر على سياسة الناس . قاله الكرماني وغيره في شرح الحديث[1] . لكن رودينسون يشكك في صحة هذه الرواية ويقول أنها ملفقة وموضوعة بقصد إثبات أن محمدًا كان مؤهلاً لقيادة أمة، وأنه كان يتحلى بصفات الراعي الصالح ، وغيرها من الصفات التي يراها الكاتب غير منسجمة مع شخصية النبي صلى الله عليه وسلم . فانظر إلى هذه الجراءة والتعدي على الفضيلة ، والطعن في أعظم شخصية عرفها التاريخ الإنساني منذ بداية التاريخ وحتى نهايته . إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أول نبي وأول قائد يبني أمة عظيمة ، ويرسي قواعد إيمانية وعلمية لحضارة مزدهرة ومثمرة تتحدد مع الزمان ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . ولكن رودينسون يريد أن يشوه التاريخ ويغتال بوهمه كل قياداته التي لا تروقه في سبيل ذلك المثل المشوه الذي يحتفظ به لنفسه ، وفي سبيل ذلك القمقم الذي يعيش فيه هو ومن على شاكلته من المحتقنين بالعداوة للإسلام ونبي الإسلام .

لقد أعلن الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل أن محمدًا هو بطل التاريخ الإنساني كله وصرح برنارد شو في بني قومه بأنه لو كان محمد بيننا اليوم لاستطاع أن يحل جميع مشكلات العالم بينما هو يشرب فنجانًا من القهوة . وحديثًا وضع الكاتب الأمريكي هارت رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أعظم مائة شخصية في تاريخ العالم وذلك لسعة وعمق وشمول تأثيره على المجتمع الإنساني بأسره في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته وإلى قيام الساعة . إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أول شخصية تبني أمة وتؤسس دينًا عالميًا لا يزال حيًا في نفوس الملايين من البشر ولايزال ينتشر بين الناس في كل مكان.

خطبة محمد المزعومة لأم هانئ وزواجه -صلى الله عليه وسلم-

من السيدة خديجة ومزاعم المستشرق:

زعم رودينسون دون أي دليل أن محمدًا لم يتزوج في فترة مبكرة من عمره مثل

---

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام . ج١ ص٣٧.

سائر شباب العرب نظرًا لفقره الشديد ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد طلب يد أم هانئ، بنت عمه أبي طالب كزوجة من أبيها ، ولكنه قد رفض بسبب فقره ولأن الأب كان يأمل في شاب غني لابنته .وبعد أن تزوجت أم هانئ من شخص آخر بقيت معه مدة طويلة ثم مات عنها فترملت ، وعندئذ كانت أم هانئ تتمنى أن لو عاد ابن عمها محمد فخطبها من أبيها .إلا أن محمدًا لم يبد ميلاً نحو هذا الأمر، ولكنهما وعلى أية حال قد ظلا على علاقة طيبة ، حتى أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ في تلك الليلة التي قام فيها برحلته الليلية ، إشارة إلى حادثة الإسراء والمعراج .

"Muhammad seems to have remained a bachelor for longer than was usual among his people. The reason for this was probably poverty. He asked, It is said, Abu Talib for the hand of his cousin Umm Hani. Marriages between cousins were approved of in Beduin society ; but the suitor was rejected probably in favour of a more illustrious rival. Long afterwards Umm Hani, then widowed, would have been glad to have her cousin renew his offer, but Muhammad was no longer inclined; they remained, however on a good terms. He was sleeping in Umm Hani's the night he made his nocturnal voyage to heaven".(p49)

إن كلام رودينسون فضلاً عن أنه لا يستند إلى دليل ، حيث إن ابن إسحاق وهو أخبر بتفاصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لم يورد هذه الحادثة في سيرته ، فإنه يتعارض تمامًا مع ما عرف عن النبي صلى الله عليه وسلم من طهارة نفس وعفة قلب ، ونقاء عِرْض ، ومن بعد تام عن مواطن الشبهات . وإننا لا نعرف قط أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تقدم لخطبة أحد من النساء ورفض بسبب فقره . بل إن المعروف من السيرة النبوية أن أبا طالب كان يحب محمدًا حبًّا شديدًا ويقدمه على أولاده . هذا و لم يكن أبو طالب بالذي يفضل علي ابن أخيه أحدًا لو طلب ابن أخيه منه يد ابنته ، كما أن موازين أبي طالب في الحياة لم تكن مادية قط ، ولابد أن تكون ابنته أم هانئ كذلك ، فكيف يرفضا محمدًا لفقره ؟. جاء في السيرة النبوية ما ينبئ عن عظم نفس أبي طالب، فقد ورد أنه قد حضر ، ومعه بنو مضر عقد زواج محمد من خديجة ، فقال محدثًا عنه :

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئضئي معد ، وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا ، وحرمًا آمنًا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به ، فإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد مَنْ قد

عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي . وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل [1] » .

فهل كان يعجز مثل أبي طالب أن يقول مثل هذا الكلام لابنته عن محمد ؟ في حالة ما إذا كان قد تقدم ليخطبها منه ؟ وهل كانت ابنته لا تعرف قدر محمد ، ولا تستطيع أن تزنه بميزانه الراجح ؟ هذا ما لا يظنه عاقل . لقد كان محمد حريًا أن يتزوج من أعلى بيوتات العرب إلا أن الله تعالى كان قد قدر هذا الشرف العظيم ، شرف الزواج من محمد لخديجة رضي الله عنها .

وهنا ننتقل لمناقشة مزاعم رودينسون حول زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ، فإنه يقصر زواجه صلى الله عليه وسلم منها لأسباب مادية بحتة ، فيزعم أن هذا الزواج كان بغرض الحصول على أسباب السعادة الدنيوية من الغنى والجاه والزعامة ، قائلاً إن هذا الرجل الفقير الذي كان يعمل عند الناس بالأجرة ليكسب قوت يومه بالكاد أصبح غنيًا ، وذا أهمية ، بعد زواجه من السيدة خديجة . وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شخصًا مهمًا قبل هذا الزواج المبارك . لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى أعرق الأصول العربية وأعظم البيوتات القرشية التي كانت تطأطئ لهم الرءوس من هيبتهم ، وتتحدث بمكارم أخلاقهم وحسن فعالهم المجامع والركبان ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم معروفًا مشهورًا بين قومه بالصدق والأمانة والرجحان والفطانة ؛ في الرأي والحكم مما أهله للفصل في أكبر نزاع حدث بين زعماء كبرى القبائل العربية حول إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه . وإن زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة في حد ذاته يعتبر دليلاً على نباهته وعلو مكانته إذ أنها ـ رضي الله عنها ـ قد رفضت من تقدموا للزواج منها من نبهاء ووجهاء العرب ، وخطبته هي نفسها لنفسها على غير ما كانت تجري عليه عادة العرب وتجري إلى اليوم . لقد كان هذا الزواج المبارك والأول ، بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بترتيب إلهي بحت ، وتقدير رباني صرف، كما كان فاتحة خير على الدنيا كلها ، لا على محمد بمفرده . هذا ولم يكن لمحمد من غنى السيدة خديجة غير ما اعتاد عليه طوال حياته من زاد قليل ، وملبس متواضع ، وأهم من ذلك ، وقبل كل ذلك ، فإن حياته صلى الله عليه وسلم لم تختلف من حيث مظاهر العيش ووجوه الإنفاق قبل الزواج ، عنها بعد الزواج . يقول رودينسون بقسوة غير لائقة بإنسان

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة، ج١ ص٢٥ - ٢٦ .

يدعي التحضر ويزعم التميز على جميع البشر أن محمدًا لم تكن له ميول عاطفية نحو السيدة خديجة لتقدم سنها ، وذلك لأنه كان يسعى فقط للحصول على مالها ، والاستعانة بثروتها لا للاستمتاع بها ولا لحبها. ولكنه استطاع أن يمارس شهوته الجنسية فيما بعد وهو كبير في السن ، مع نساء حريمه الكثيرات . هكذا وبهذا البهت والإطلاق اللامسئول يجعل هذا الكاتب محمدًا انتهازيًّا وشهوانيًّا !! . ونتساءل أي حريم يا ترى كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهو الذي لم يخرج عن إطار أدب دعوته قط ، ولم يوجد لعمري هناك ثمة أي فارق بين دينه ودنياه ، وبين قوله وعمله . لقد كان المسجد هو مصلاه ومأواه في نفس الوقت ، ولم يكن في بيوته المتواضعة أي مظهر من مظاهر الرفاهية أو الأبهة ، ولم يبد عليه شيء من تلك الآثار المادية التي تبدو على الأغنياء وعشاق الدنيا وعبيدها ، ولم يقل أحد قط بأن محمدًا كان منغمسًا في الشهوات غير أعدائه الحانقين من أمثال رودينسون الذين تجاهلوا آثار النبي صلى الله عليه وسلم العظيمة التي تركها والتي لا يمكن لإنسان بل ولا لمجموعة عظيمة أو أمة كبيرة من البشر أن تقوم بها . لقد كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم ومماته لله رب العالمين ، وكان وقته كله موجه لتأسيس الملة والأمة ، ولم يكن لديه فراغ حتى يملأه بما يملأ به أصحاب اللذات الحيوانية والشهوات المستعرة أوقاتهم. لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب السيدة خديجة من كل قلبه ، أحبها وهي معه ، وظل يحبها ويذكرها دائمًا بعد أن اختارت جوار ربها ، وكان يحب من كانت خديجة تحبه ، ويبر بمواضع قراباتها وبرها. ولقد أنجبت له رضي الله عنها البنات والبنين وهذا في حد ذاته يدل على أنها لم تكن طاعنة في السن ، أو عاجزة عن الوفاء بمطالب الزوج . لكن ما بالنا وأمثال رودينسون يتطاولون على عظماء البشرية ، ويقولون فيهم بالإثم ما ليس فيهم . إن الحنق لا يزال يشوي أكبادهم ، ويلفح قلوبهم. ينقل رودينسون بعد ذلك عن أحد المحللين النفسيين في الغرب قوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد عُوِّض بزواجه من السيدة خديجة عن حنان الأم التي فقدها صغيرًا وتأثر بفقدها كثيرًا في كل مراحل حياته وهذا هو السبب ، من وجهة نظر هذا المحلل، الذي جعله يقبل الزواج من هذه العجوز، ويتعلق بها أشد التعلق حتى بعد موتها . رأيان متعارضان، الأول يقول إنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة من أجل المال والجاه . والآخر يقول إنه تزوجها من أجل أن تعوضه عن الحنان الذي فقده صغيرًا بفقد أمه . وعلى أي حال فإن هذا التحليل الأخير وإن كان مقبولاً في ظاهره ،

إلا أنه ينبغي أن يقيد ، ولا يطلق هكذا لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان زوجًا مثاليًا يقوم بواجبات الزوج كاملة ، وكانت حياته مع السيدة خديجة رضوان الله عليها أبعد وأعمق من أن تكون مجرد مصدر سلوى وعوض عن الأمومة التي حُرِمَهَا صلى الله عليه وسلم في باكورة حياته . لقد اتخذ صلى الله عليه وسلم خديجة كزوجة لا كأم ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثالاً للكمال في كل مراحل حياته ، وفي أوصافه المختلفة ، كشاب ، وكزوج ، وكأب ، وكجد ، وكصاحب وكقائد ، وهكذا.

هذا ولم تظهر عليه قط أي أعراض أمراض نفسية، بل لقد كان صلى الله عليه وسلم هو المثال الكامل للإنسان سواء في طفولته أو في شبابه أو في شيخوخته ، ولا تزال سيرته هي منبع الأخلاق السليمة. والخلائق القويمة للمسلمين ولكل من يبتغي الفضيلة ويتمسك بالقيم النبيلة من بني الإنسان .

ونختم مناقشتنا لمزاعم مكسيم رودينسون حول زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنقطة غاية في الأهمية وهي خاصة بطريقته في الكتابة وبمعياره الذي استخدمه، واختلال المعيار دليل على اختلال الرؤى والأفكار . إن أخطاء رودينسون في هذا الكتاب ترجع في معظمها وفي جوهرها إلى أحكامه المادية المتعسفة ، وإلى محاولة تطبيقه نظريات علم النفس المادية والقاصرة على « مثال » فرد وفذ لم ولن يتكرر ، وليس على حالة أو حالات تعامل معها علماء النفس . إن الرسول صلى الله عليه وسلم نموذج لا يتكرر في تاريخ الإنسانية ولا يمكن أن يصنف ضمن حالة أو عينة من عينات علم النفس . إن التغوير في أعماق القلوب لمعرفة أسرارها لابد أن يكون له سند واضح من الواقع ودليل ظاهر من الأفعال والأقوال والسلوك ، وإلا صار الأمر ضربا من الظن ، ونوعًا من التخرص والتحايل الرخيص لتحقيق رغائب نفسية تضغط على صاحبها وتلح عليه حتى تجعله يتنكب الطريق وينتكس ، وحتى يكون كلامه ضربًا من الهذيان والبهتان ، مهما كانت وسائل تجميله وتزويقه ، وهذا هو حال مكسيم رودينسون وكتابه الذي بين أيدينا .

زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش

لم يكن ليفوت مكسيم رودينسون أن يتناول بطريقته الخاصة موضوع زواج النبي

صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته، ومطلقة مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش.

وتمشيًا مع خطته العامة في تناول السيرة الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ومع التيار الغربي العام الذي استقى منه معلوماته .

فإنه يصور هذا الزواج بصورة تتنافى مع العصمة النبوية ، إذ يزعم أنه قد تم نتيجة خطة وضعها محمد ، وأن الآيات القرآنية التي نزلت بشأنه إنما كتبها بالتالي محمد نفسه ليبرر بها فعلته . هذا الفهم الخاطئ للسيرة النبوية إنما يدين كاتبه ويظهر سوء نيته تجاه أعظم عظماء التاريخ محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان نموذجا للعفة ومثلا أعلى للفضيلة .(ص ٢٠٥ - ٢٠٨)[1] .

إن الآيات الخاصة بهذا الزواج الإلهي المبارك كما جاءت في سورة الأحزاب قد وردت في سياق قرآني يتحدث عن الفضيلة والعفة . ولكي نوضح هذه النقطة نعرض أولا الفقرة القرآنية التي تتحدث عن الموضوع الذي بين أيدينا .

يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا(٣٦)وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً(٣٧)مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾(الأحزاب ٣٦-٣٨) .

وقبل أن نعلق على هذه الآيات ننظر أولاً في الآية السابقة عليها، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. والآية اللاحقة وهي: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

---

(1) See also Thomas Patrick Hughes, (New Delhi, Cosmo publication, 1978) pp.378f.

علما بأن الآيات التي تلي هذه الآية الأخيرة تتحدث كذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية عصمته ونبوته وخاتميته للأنبياء .

وفي نفس السياق يصف الله تعالى محمدًا بالأوصاف الخلقية الجميلة بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦)وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا(٤٧)وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الآيات ٤٥ : ٤٨).

وهذا السياق القرآني في حد ذاته يبين بجلاء أن الآيات الخاصة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب مطلقة زيد بن حارثة ، تأخذ وضعها الطبيعي في مجموع آيات السورة ، كما أنها في نفس الوقت تبين بوضوح تام أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بدافع الشهوة ، وإنما امتثالاً للأمر الإلهي ، وإنه من ثم لم يخرج بهذا الزواج عن إطار الشرع الذي جاء به ، أو يعدل بنفسه عن حدود المثل الأعلى الذي جسده ، وتمسك به كل التمسك ، في كل أقواله وأفعاله .ولم يعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط في حياته كلها بأنه وقف موقفًا فيه شبهة بالنسبة للنساء ، لا قبل ولا بعد زواجه .

والموضوع الذي يطعن فيه رودينسون يتلخص في أن النبي صلى الله عليه وسلم زوج بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة ، بعد أن أنعم عليه بالعتق من الرق ، وقد كان زيد سيدًا كبير الشأن عظيم القدر محببًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إلى درجة أنه صلى الله عليه وسلم كان يسميه «الحِب» ويسمي ابنه أسامة «الحِب بن الحِب »ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الزواج منها لتزوجها بكرًا قبل أن يزوجها لزيد ، ولكن الله تعالى أراد لهذا الأمر أن يتم على هذا النحو لغاية تشريعية ، وذلك لإبطال عادة التبني ولإثبات حكم شرعي هو جواز زواج مطلقة متبني الرجل دون حرج .

لم يمض على زواج زيد من زينب إلا نحو عام ، حتى دب الخلاف بينهما فجاء زيد يشكو زوجته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ، مع أن الله تعالى كان قد أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بطلاق زينب من زيد ، وبأنه تعالى سيزوجها له صلى الله عليه وسلم ، قضاء من الله تعالى . ولذلك يقول الله بعد العبارة السابقة مباشرة

﴿..وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ..﴾(٣٧) خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر بخبر السماء بشأن زواجه من زينب مخافة طعن الأعداء ، حتى عاتبه الله تعالى وأنزل عليه في ذلك قرآنًا بلغه النبي صلى الله عليه وسلم للناس لأنه صار متأكدًا بعد ذلك أن هذا كان أمرًا من الله تعالى له .

روى ابن جرير عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « لو كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ » .

لقد عرف زيد رضي الله عنه الحكمة في زواجه من بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن طلاقه منها ثم من زواجها، بعد انقضاء عدتها ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان زيد هو الذي أخبر زينب بنبأ زواج النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وذلك بتكليف من النبي صلى الله عليه وسلم له .

لقد كان هذا الزواج إذن زواجًا لا دخل فيه لشهوة أو لرغبة شخصية وإنما كان زواجًا إلهيًّا قد تم لغاية تشريعية وبالتالي فإنه ينبغي علينا ، عند تناولنا له ، أن نضعه في سياقه الصحيح ، وأن نفهمه في إطار السيرة الكلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقوال أصحابه وأتباعه لا أعدائه وبالذات فيما يخص هذا الجانب من حياته صلى الله عليه وسلم.

دراسة نفسية تحليلية خاطئة لشخصية الرسول :

يزعم رودينسون بالإضافة إلى ما سبق أن محمدًا لم يرض بنوع تلك الحياة الرتيبة المملة التي كان يعيشها ، وأنه بالرغم من غناه وتحسن حالته المادية بعد الزواج من خديجة ، كان لا يزال قلقًا ومتوترًا ، ولا يكاد يستقر على حال ، وذلك لأنه كان يسعى دائمًا للوصول إلى شيء أهم وأسمى مما كان عليه ، وهو الصعود إلى رتبة تجعله فوق الجميع . ويستعمل رودينسون علم النفس الغربي اللا ديني ليرسم لمحمد صلى الله عليه وسلم صورة تحتوي على جميع الألوان والأصباغ الخداعة التي أعدت سلفًا لتخدم غرضه . يقول :

«إن محمدًا كان يجمع في يده كل أسباب السعادة، ولكنه بالرغم من هذا كان كئيبًا وغير سعيد . وذلك لأن السعادة بحدودها المعروفة كانت بعيدة عنه لأنه كان

يعاني من القلق والتوتر باستمرار ، وإن شخصية كشخصية محمد لم تكن لتتقبل هذه السعادة بهدوء أو تتخلى عن الأشياء التي اعتادت عليها بسهولة ؛ وذلك لأن السعادة المعروفة لدينا لم تخلق لهؤلاء الذين ينظرون إلى أبعد مما هم عليه بالفعل ، أو ما هو بأيديهم في الواقع ونفس الأمر. إن نفوس مثل هذا الصنف من البشر لا تكاد تستقر على حال، ومهما أوتيت من أسباب السعادة فإنها تظل كئيبة وغير سعيدة» (ص٥٣-٥٤).

هذا التحليل بالطبع يرمي إلى القول بأن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كانت قلقة ومتوترة وغير سعيدة ، يعني بتعبير علماء النفس شخصية غير سوية . ويضيف رودينسون إلى هذه الافتراءات قوله :

«وإذا كانت أسباب الكآبة والاضطراب اللتان أحاطتا بحياة محمد مجهولة لدينا (يعني لدى الغربيين) فإنه يمكننا أن نتلمس الطريق إلى معرفتها ، إذ أنه بالإضافة إلى انهماكه التام في التفكير في المستقبل فإنه كان يعاني نفسيًا بشدة وذلك بسبب فقد الولد ، وقد مثلت له هذه المشكلة النفسية عقدة في حياته ، فقد كان أعداؤه يسمونه بالمقطوع أو الأبتر».

أساء الكاتب الأدب مع رسول الله صلى الله عيه وسلم حين استعمل هذا التعبير «محمد الأبتر» وبخاصة أنه ترجم كلمة «أبتر» العربية بالكلمة الإنجليزية Mutilated، والتي تفيد تمزيق الجسم أو قطع عضو منه لتشويهه وتفيد الكلمة كذلك التمثيل بالجثة، وهذا بعيد كل البعد عن المعنى المقصود من اللفظة . فقد ترجمت كلمة «أبتر» على سبيل المثال إلى childless في ترجمة سيل وداود ، وإلى without posterity في ترجمة بيكثال، على أن عبد الله يوسف علي وأربري وآخرين قد ترجموا كلمة «الأبتر» بـ cut off، ومما ينبغي ملاحظته أن القرآن لم يذكر مقالة هذا المبغض يعني وصفه للنبي بالأبتر ، أي مقطوع الذكر بانقطاع النسل ، وإنما ضمنها الله في رده عليه بقوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر ٣) ولكي يتضح خطأ مكسيم رودينسون ، نورد كلام ابن كثير في تفسير هذه الآية ، يقول في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك ياحمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق ، والبرهان الساطع ، والنور المبين هو «الأبتر» الأقل الأذل المنقطع ذكره ، قال ابن عباس ومجاهد: « نزلت في العاص بن وائل الذي كان يقول ، إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله هذه

السورة ،وقيل نزلت في عقبة ابن أبي معيط ، وقيل في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن لرسول الله ، فذهب أبو لهب إلى المشركين ، فقال بتر محمد الليلة ، وقال ابن عباس نزلت في أبي جهل . والقول يعم جميع من اتصف بالشنائة لرسول الله من الذين قالوا حين مات أبناء رسول الله بتر محمد إذ توهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، على جاري عادتهم «وحاشا وكلا»، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًا على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد...»[1] .

وفي سبب نزول سورة الكوثر قال ابن إسحاق : «وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذكر رسول الله قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه فأنزل الله في ذلك ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (أي) ما هو خير لك من الدنيا وما فيها . و«الكوثر» «الشيء العظيم »[2]. ورد القرآن على هذا الشانئ بقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ والكوثر هنا بمعنى الأمة الكثيرة والشعوب المتعاظمة التي لا تقاس بها الأسرة أو العائلة أو القبيلة أو الشعب. وقد يعني الكوثر الحوض أو النهر العظيم الذي سيعطاه رسول الله يوم القيامة. والذي سيرد عليه كل المحظوظين ليشربوا منه ويرووا ، وقد يعني الكوثر النبوة والقرآن وثواب الآخرة والخير الكثير .

ويسيئ رودينسون الأدب مرة أخرى مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع القرآن ومع جبريل عليه السلام ، بل ومع الله تبارك وتعالى إذ يقول :«بينما كان محمد يمشي في الطريق سمع صوتًا من السماء يعلن على سمعه هذه السطور الانتقامية الحاقدة» إنا أعطيناك الكوثر .. إلخ . «ثم يزعم أن عجز السيدة خديجة عن إنجاب الأولاد لمحمد قد سبب له كراهية شديدة لهذه الزوجة الذكية التي لم يستطع أن يتزوج عليها في حياتها وذلك لأنها كانت قد اشترطت عليه هذا الشئ ولا بد ، حيث إنها كانت في وضع أقوى يؤهلها لإملاء مثل هذا الشرط على محمد . وفي قرينة زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها ينقل رودينسون عن أميانس والذي نقل هو بدوره عن الخبر ناثان قوله إنه :

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ج٣، ص٦٨٤.

(٢) نفس المصدر وسيرة ابن هشام ج١، ص١٩٠.

«لا يوجد مكان في العالم تتغلب فيه النزعة الطبيعية إلى ممارسة أعمال الزنا على كل النوازع إلا بين العرب ، وكما أنه لم يكن هناك إمبراطورية أقوى من فارس ، أو دولة أغنى من روما ، أو بلدا أكثر مهارة في السحر من مصر ، فإنه لا توجد أمة كذلك أشد ميلاً إلى ممارسة الزنا من العرب» .

ثم يضيف قائلاً:

«إنه إذا كانت نسبة عمليات الزنا في العالم من عشرة فإن العرب يختصون منها بتسع ثم يقسم الواحد المتبقي على جميع أمم العالم» (P.54)

أرأيت أبعد من هذا غورًا في الفحش والهجر . لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يزال هو المثل الأعلى للإنسانية فقد سماه الله تعالى في القرآن بالرحمة وبالسراج المنير وقال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤) أورد البخاري في باب المناقب قال عن قتيبة بن سعيد عن يعقوب عن عبد الرحمن عن عمرو ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت منه» .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال «لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا وكان يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا »» البخاري مناقب .

ولقد كان حياؤه صلى الله عليه وسلم يمنعه من مثل ما يزعمه رودينسون وأشياعه. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها » البخاري مناقب .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم ما رواه قطبة بن مالك رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء» الترمذي وقال حديث حسن .

وعن شَكَلْ بن حميد رضي الله عنه قال : (قلت يا رسول الله علمني دعاء قال : قل : « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن شر منهي عنه».) أبو داود ، والترمذي وقال حديث حسن .

ونحن نعف هنا عن ذكر أخبار الزنا وارتكاب الفواحش الظاهرة والباطنة التي وضعتها أيدي الآثمين في كتب التوراة وكتب الأنبياء التي يباهى بها ويروج لها

رودينسون وأمثاله . يستمر هذا الكاتب في الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الإطار غير الخلقي الذي يتنافى تمامًا مع شخصيته صلى الله عليه وسلم، إذ يتحدث عنه مرة أخرى وبإسهاب، في قرينة واحدة مع تجار مكة ومياسيرها الذين انغمسوا في الشهوات والملذات ، ليوحي بذلك للقارئ بأنه كان من الطبيعي جدًّا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يعمل بمثل عمل أهل مكة ، لأنه كان تاجرًا وموسرًا مثلهم . ولأن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لم تسجل قط أي تهمة أو شبهة في هذا المجال ، ولأن حياته صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة قد اتسمت بالحب الوافر ، والود الغامر ، والوفاء النادر ، فإن الكاتب يزعم أن محمدًا كان يزني على الأقل بعينه لأن السيدة خديجة لم تستطع أن تشبع غرائزه الجنسية يقول: «لقد قاوم محمد الإغراءات الجنسية ، ولكننا لا نعرف إلى أي مدى كانت مقاومته ، وهل كان من السهل عليه أن يقاوم أم لا ؟ إلا أننا الآن نعرف بيقين مدى ما تكبده محمد من معاناة وإحباط في سبيل مقاومة الشهوات» . هذا هو السبب الثاني الذي يذكره المؤلف ليدلل به على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان تعيسًا وبئيسًا . إنه وبدون حياء قد أخضع حياة أطهر الخلق وأجل الناس لتحليلات سيجموند فرويد النفساني اليهودي المادي الملحد ، الذي جعل الحياة، كل الحياة، مجرد لذة وشهوة ، وجعل الجنس هو الغاية العليا من وراء الخلق ، وصور الجنس على أنه هو مصدر العبقرية والإبداع ، وأنه هو المحرك الأول والحاسم لجميع أنشطة الإنسان ، حتى الأم وهي ترضع طفلها تسيطر عليها تلك اللذة الجنسية العارمة[1]. إن كل مشكلة عند هؤلاء الغربيين الماديين مردها إلى الجنس ، وكل عقدة عندهم لا تحل إلا عن طريق ممارسة الجنس ، والانطلاق والحرية الفوضوية. وهذا التفسير لنعمة الجنس تفسير شاذ مبني على رؤى وإحساسات شخصية ، وأحكام وإسقاطات عندية ، ليست موضوعية ولا علمية بحال . إن الغرب بشكل عام يعاني من الكبت والعقد النفسية والشذوذ الجنسي بأنواعه المختلفة أكثر من غيره من الشعوب الأخرى ، هذا بالرغم من أن الحرية الجنسية لا حدود لها ، ولا قيود عليها عندهم، ولو أنصف علماء النفس الغربيين لأعلنوا بشجاعة أن الجنس غير المنضبط والمنفلت من زمام القيم والأخلاق هو سبب الكارثة ، وهو مجلبة الكبت ،

---

(1) The status of Women From the Islamic Perspective with a Critical study of the Draft Platform for Action for the fourth World Conference on Women (Beijing, China, 1995) Cairo, al Matbaa al - Islamiyya al Haditha, 1416-1996, pp.9ff.

وهو السبب الكامن من وراء العقد والأمراض النفسية والبدنية الخطيرة كذلك . وهو أيضًا من أكبر أسباب الكوارث الاجتماعية التي يعاني منها أهل العصر .

إن العفة هي مصدر العبقرية والإبداع ، والسواء والاعتدال النفسي وليس الجنس كما يزعم علماء النفس الماديين الغربيين . وإن التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية والقيم الفاضلة لم تشيدها إلا أيدي فضلاء البشر . ولو أنصف علم النفس الغربي لعدل من سيرته وطريقته واتجه الوجهة الصحيحة وعدل من منهجه ومنطلقاته وغاياته ليثبت عكس ما زعمه رودينسون وأشياعه ؛ أن محمدًا بالتحليل النفسي هو أعظم شخصية إنسانية عرفها التاريخ ، وأنه نموذج للشخصية السوية ، وللإنسان الكامل بكل المعايير. ولا ضير فقد وجد من بين علماء الغرب من قرر ذلك بشجاعة وإخلاص مثل توماس كارلايل وبيرنارد شو وهارت وغيرهم كما أشرنا إليه من قبل .

ذكرنا فيما سبق أن مكسيم رودينسون قد طعن في زواج النبي من السيدة زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بأمر الله بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة .

وذكرنا أيضًا أنه اعتمد في طعنه على روايات ضعيفة بنى عليها آراء تقدح في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتصوره بصورة الرجل الشهواني الذي لا يتورع عن تطليق زوجة مولاه ليتزوجها هو من بعده ، ثم يدعي بعد ذلك أن القرآن نزل عليه يأمره بهذا الزواج، بل إنه ليزعم أكثر من ذلك أن الله قد عاتبه لأنه كان قد أخفى أمر زواجه من زينب، فمحمد إذن رجل شهواني وهو في نفس الوقت يزعم أن الله قد أنزل عليه قرآنًا يبرر به تصرفه هذا.

حاول مكسيم أن يخفف من حدة الهجوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله إنه يشك في أن محمدًا قد لفق هذا الموقف، ولكنه على أي حال ظل يعاني منه نفسيًا.

التفسير الأسطوري لحادثة شق الصدر :

بعد أن قدم الكاتب هذا التحليل النفسي المبني على محض توهمات ، ومجرد تخمينات ينتقل ليتعامل مع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى بمعاييره الغربية ، وفي إطار البيئة التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر بناءً على تفريعه

السابق، السبب الثالث في عدم شعور محمد بالسعادة ، يعني السعادة التي يفهمها رودينسون وحده، يقول :

« إن محمدًا قد لجأ إلى الاهتمام بالمسألة الدينية لأنه لم يكن لديه القدرة على العمل في غيرها ، في هذه المرحلة من حياته ، إذ أن كفار قريش قد جمعوا كل أسباب القوة في أيديهم وكان محمد على الجانب الآخر يعتقد أنه أفضل رجل في مكة ، وأنه لا يوجد فيها من الرجال من يتفوق عليه ؛ وأنه من أجل إظهار محمد في أحسن صورة قد لفقت له أسطورة شق الصدر التي جاءت في كتب السيرة . إن محمدًا كان يعتقد في طفولته ما كان يعتقده السحرة والكهنة في شمال ووسط آسيا ، وسحرة استراليا أيضا، من أنهم أثناء تلقيهم التنزلات أو أثناء تأديتهم للشعائر والصلوات المخصوصة ، كانوا يشعرون أن روحًا قد أخذت أعضاءهم الداخلية منهم ، ووضعت مكانها أعضاء أخرى أحسن منها . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل محمدًا بالتأكيد يعاني من بعض الأزمات من هذا النوع في سن المراهقة ، وهذا الشيء نفسه هو الذي جعل أعداء محمد من النصارى يزعمون أنه كان مصابًا بداء الصرع ، وإذا صح هذا الزعم فإن صرع محمد كان معتدلاً فلم يمثل خطورة عليه» (P56) .

ويقرر رودينسون أن حالة محمد العضوية والنفسية إنما هي من نوع ما كان عليه كثير من المتصوفة الباطنية، وهذا تشخيص مغلوط جملة وتفصيلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ساحراً ولا كاهنًا ولا صوفيًّا من أهل الباطن ، بل كان رجلاً ربانيًّا زاهدًا مقبلاً على الله تعالى سواء قبل الرسالة أو بعدها ، وقد عصمه الله من آفات السحرة والكهنة والمشعوذة ، ومن رعونات أهل الباطن والمتصوفة . ثم إن حياته صلى الله عليه وسلم وما تركه من عظيم الآثار المادية والمعنوية ، والتي غيرت وجه ونظاء العالم كله ، والتي لا تزال باقية ومؤثرة ، وقوية قوة الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء . وكل هذا ما كان له أن يتحقق لو لم يكن محمد رسول الله حقا وخاتم الأنبياء والمرسلين صدقًا ، فلسنا نعرف ساحرًا أو كاهنًا ، أو رجلاً مصروعًا قد وعي التاريخ ووعاه التاريخ كما هو الحال بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولسنا نجد كذلك رجلاً قد تبوأ مقعد القيادة العامة للبشرية كمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجد قبل محمد رجلاً ، نبيًّا كان أو عالمًا أو قائدًا قد بنى حضارة على الإيمان بالله وعلى الدين ، وأنشأ أمة دينية ومدنية قوية ومستمرة من بعده كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

إن رودينسون يأبى إلا أن يطبق محفوظاته من علم النفس الغربي المادي على محمد عندما يصفه خطأ بالتمرد على بيئته ، المتحدي لها ، وأنه انتصر عليها في النهاية لغاية في نفسه. فالمسألة من وجهة نظر هذا الكاتب الماركسي كانت مجرد تحد مادي بين محمد والبيئة ، ومحض صراع جدلي بين محمد والظروف التي عاشها ، وبالتالي فلا مجال للدين ولا للوحي ، ولا للعصمة فيما فعله النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا افتراء وتشويه متعمد لحقائق التاريخ وواقع الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية المطهرة في آن واحد .

اتهام محمد بالشذوذ النفسي وبالانتحال من كتب اليهود والنصارى وعقائد الوثنيين والرهبان :

يصنف الكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجرأة عجيبة ضمن :

«هؤلاء الأشخاص غير الأسوياء ، الذين يعيشون في وهم الاتصال بالآلهة والأرواح، وبالتالي يعيشون شبه منفصلين عن الواقع العام للناس فهم يتخيلون أنهم يسمعون أصواتًا أو يرون كائنات ليس للآخرين طريق إلى معرفتها. لقد عرفت العرب هذا الصنف من الناس وذلك النوع من الخبرة في صورة الكهان العرب ، الذين يشترك محمد في كثير من السمات والعوارض كما لاحظه عليه معاصروه دون مشقة ؛ وإنه بلا شك ينتمي عضويًا ونفسيًا إلى طائفة الكهنة . فلقد كان محمد مثلهم يتعرض لنوبات من الاهتياج العصبي ، مع الشعور بأنه يسمع ويرى أشياء بعيدة عن مدارك الآخرين ، وربما كان شعوره الدائم بعدم الرضا ، ذلك الشعور الذي تركز في أعماق نفسه ، والذي كان السبب والمؤثر على مزاجه حتى بلوغه سن الأربعين ، وكان هذا الشعور أيضًا هو الذي ساعده كذلك على تقوية ميله أو نزوعه لادعاء الوحي وتأسيس دين . ونظراً لأن محمدًا كان يتميز على سائر الكهان بقوة شخصيته ، بالإضافة إلى شعوره الدائم بالقلق وعدم الرضا فإنه تميز عليهم أيضًا بطريقة التفكير العميق في الأشياء ، أضف إلى ذلك أنه استخدم مزاجه الخاص الميال إلى التمرد على المألوف والمعهود للوصول إلى أهدافه ، وبناء على هذا كله فقد استطاع محمد أن يطور بناء عقليًا كاملاً ، هذا البناء العقلي كان شيئًا نادرًا (P57).

وطبقا لغرضه المسبق ، وبناء على تحليلاته الخاصة توصل رودينسون إلى أن القرآن

كله إنما هو: «بناء عقلي . ابتدأه محمد وطوره حتى وصل إلى هذه الدرجة العالية من الإتقان ، وأن القرآن إنما جاء استجابة أو تحديا لمعطيات البيئة التي نشأ فيها (محمد صلى الله عليه وسلم). هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن القرآن إنما هو نتاج عقلية محمد او هو حديث صادر من منطقة اللاوعي عنده ..!!».

بالطبع لا يستطيع رودينسون أن ينكر أو يتجاهل قوة وعظمة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده عن سفاسف الأمور ، ولكنه للأسف يوظف القوى والقدرات الممتازة التي حبا الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم لأغراض غير ملائمة لما أعد الله لها رسوله ، ولما عرف عنه صلى الله عليه وسلم من خلائق عالية وصفات مثلى. يقول الكاتب: «إن محمدًا لم يكن مثل سائر الكهنة يشغل نفسه بالتنبؤ للناس أو بتفسير أحلامهم . بل إنه على العكس لم يتخذ الكهانة مهنة ، أو مصدر ارتزاق أو وجاهة كما كان يفعل الكهان في مكة ، ولكنه جعل يتعلم ويفكر طوال الوقت ، وبالتدريج كانت روحه تتقدم على الطريق حتى وصل إلى المكان الذي تجاوز به حدود زمان ومكان أهل بلده» (ص٥٨).

بهذه اللغة السيالة والبطالة يتكلم رودينسون عن محمد صلى الله عليه وسلم ككاهن متميز ، وليس كنبي معصوم ومبرز ، وصاحب ديانة وحضارة . لقد نفى القرآن في عدة مواضع منه أن يكون محمد كاهنًا أو ساحرًا يقول الله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ (الطور ٢٩) ، ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة٤٢).

وقد اعترض النبي صلى الله عليه وسلم على الكلام المسجوع كسجع الكهان كما ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب . وللأسف فإن الكاتب الأيرلاندي ماليس روثفين Malise Ruthven قد تأثر بالتحليلات النفسية الخاطئة التي حاول رودينسون تطبيقها علي شخصية الرسول صلي الله عليه وسلم فزعم هو الآخر أن القرآن إنما صدر من أعماق محمد، وليس هو بوحي أنزله الله على محمد [1] .

مناقشة مزاعم الكاتب حول مفهومي الكهانة والعرافة والنبوة :

خلط الكاتب بين مفهومى الكهانة والعرافة وبين النبوة من جانب ، وبين النبي

(1) Islam in The World Peguin Books, 1991, P.62f.

والكاهن من جانب آخر ، لذا وجب أن نعرف هنا الكهانة والعرافة ، وما هي الحدود الفارقة بينهما وبين النبوة .

الكهانة مأخوذة من كهن له يكهن كهانة، وتكهن تكهنًا قضى له بالغيب. والكاهن هو الذي يخبر بالأشياء الماضية الخفية بضرب من الظن . والعراف هو الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك ، يقول الراغب الأصفهاني : «ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطئ ويصيب» قال عليه السلام : «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد». رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجه أحمد في المسند ٢/٤٢٩ وأبو داود في كتاب الطب ، كما جاء الحديث بالنهي عن أكل حلوان الكاهن[١]. أما بالنسبة للنبوة والنبي فالنبوة صفة في النبي ، ذهب البعض إلى أنها صفة ثبوتية فى النبي ، وذهب آخرون إلى أنها صفة إضافية لا حقيقية ، والصحيح كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(ت ٧٢٨ هـ) أن النبوة تجمع الاثنين فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي وصفة إضافية هي مجرد تعلق الخطاب الإلهي به.. [٢]. والنبوة اصطفاء الله لأحد عباده وتكليفه له برسالة يبلغها إلى خلقه. والنبي لفظ منقول في العرف عن مسماه اللغوي فقيل : هو المنبئ ، أى المخبر عن الله تعالى ، والنبأ معناه الخبر. وقيل هو من النبوة وهو العلو والارتفاع وذلك لعلو شأن النبي ولأنه أيضاً يتلقى الوحي من أعلى أي من السماء ، ولأنه يشرف بالوحي من أعلى على الخلق الذين بعث فيهم . وقيل النبي معناه الطريق وذلك لمناسبة كونه وسيلة موصلة إلى الله ، وهادى يهدى إلى صراطه المستقيم.

يقول عباس بن مرداس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

ياخاتم النبآء إنك مرسل	بالخير كل هدى السبيل هداكا
إن الإله ثنى عليك محبة	في خلقه ومحمداً سماك

ونبآء كأنبياء جمع نبي [٣] . ويعرف عضد الدين القاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي النبي بأنه: «عند أهل الحق من قال له الله تعالى أرسلتك أو بلغهم عنى ونحوه من الألفاظ ولا يشترط فيه شرط ولا استعداد ، بل الله يختص برحمته من يشاء من عباده وهو أعلم حيث يجعل رسالاته ».

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن . ص٧٢٨ و ٧٩٠ .

(٢) كتاب النبوات (المملكة العربية السعودية - مكتبة الرياض الحديثة) ص٢٥٦ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج١ ص١٦٢.

ويقول الإيجي أيضًا أن الفلاسفة قد اشترطوا أن تجتمع في النبي خواص ثلاث أحدها: أن يكون له اطلاع على المغيبات ، ولا يستنكر عليه ذلك. وثانيها: أن يظهر منه الأفعال الخارقة للعادة ، لكون هيولى (الأصل أو المادة أو الجوهر) عالم العناصر مطيعة له ، منقادة لتصرفاته انقياد بدنه لنفسه ، ولا يستنكر عليه .

وثالثها : أن يرى الملائكة مصورة ، ويسمع كلامهم وحياً ، و لا يستنكر أن يحصل له في يقظته مثل ما يحصل للنائم في نومه ، لتجرد نفسه عن الشواغل البدنية وسهولة انجذابه إلى عالم القدس[1].

ولا يتسع المقام هنا لمناقشة الفلاسفة في هذه الخواص الثلاث التي لا نختلف في أنها تجتمع في النبي ، أي نبي أيًا كانت التفاصيل بشأنها.

ويعرف الشريف الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) النبي بأنه «من أوحى إليه ملك ، أو ألهم في قلبه أو نبه بالرؤيا الصالحة، فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة، لأن الرسول هو من أوحى إليه جبرائيل خاصة بتنزيل الكتاب من الله»[2].

وفي كتاب النبوات يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية الفرق بين النبوة والسحر والكهانة فيقول :«فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي ويمتنع أن يكون شيئًا من ذلك دليلاً على النبوة ، فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده . وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها ، كل ذلك مناقض للنبوة فإن النبي لا يكون إلا مؤمناً وهؤلاء كفار ، فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة .فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها ، وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي لا يخرج عن مقدور الإنس والجن ، وأعني بالمقدور ما يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق» ويقول أيضًا : «... وما تخبر به الأنبياء من الغيب لا يقدر عليه إنس ولا جن ولا كذب فيه ، وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها ، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب ....وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سئل عن الكهان فقيل له : «إن منا قومًا

---

(١) المواقف في علم الكلام (القاهرة، مكتبة المتنبي) ص٣٣٧ - ٣٣٨ والإمام أبو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة، دار المعارف ١٣٩٢ - ١٩٧٢) ص١٨٢ وما بعدها.

(٢) كتاب التعريفات، تحقيق : عبدالمنعم الحفني (القاهرة، دار الرشاد ١٩٩١) ص٢٦٧.

يأتون الكهان ، قال : فلا يأتوهم »[1]. يضاف إلى هذا كله ما يتمتع به النبي من جمال الخلقة وحسن السمت والخلق ، والعصمة ، والمعجزة المصاحبة لدعواه النبوة والتي هي بمثابة ، صدق عبدي في ما يبلغ عني ،وهذا كله لا يتوفر لكاهن أو عراف ، ولا لأحد من الخلق غير أنبياء الله تعالى [2]. من هذا كله يتضح بجلاء الفرق بين الكهانة والعرافة والنبوة ، وكذلك بين النبي والكاهن أو العراف ، فالنبوة مبنية على اليقين والكهانة والعرافة على الظن ، ولذلك قال الأزهري : «وكانت الكهانة في العرب قبل مبعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث نبيًّا وحرست السماء بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين ، من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة بطل علم الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذي فرق الله عز وجل ، به بين الحق والباطل ، وأطلع الله سبحانه نبيه ، صلى الله عليه وسلم بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الكهنة عن الإحاطة به فلا كهانة اليوم بحمد الله ومنه وإغنائه بالتنزيل عنها»[3] .

فالكهانة ظن وحدس لا هدف من ورائها غير إقناع الموهومين ، والكاهن يعيش دائما في مجتمع ضيق ، وجامد ، وبيئة معزولة، ويحرص على أن يحيط نفسه بهالة من الوهم والكذب والخداع ، فالكاهن نفسيًّا وعقليًّا يختلف تمامًا عن النبي ، فعالمه كله قائم على الوهم ، وعلى الانفصال عن واقع الناس ، وعلى التقوقع والانكفاء على الذات والانفتاح على عالم الأرواح الشريرة ومردة الجن .

هذا من الناحية النفسية والعقلية ، ومن ناحية البيئة التي ينمو ويعيش فيها الكاهن أو العراف. ليس هذا فحسب ، وإنما هناك فوارق في العوارض والأجسام كذلك بين الكاهن والعراف وبين النبي .

وقد لاحظ المؤرخ البصير أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) الفوارق النفسية والجسدية بين كل منهما يقول «والنفوس طبقات : منها الصافي وهي النفس الناطقة ، ومنها الكدر ، وهي النفس الحسية ، والنفس النزاعية ، والنفس المتخيلة ، ومنها ما قوته في الإنسان أزيد من قوة الجسم ، ومنها ما قوة الجسم أزيد منه ، فلما كانت النسبة النورية للإنسان إلى النفس كانت تهدي الإنسان إلى

---

(١) كتاب النبوات ، ص٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

استخراج الغيب وعلم الآتي ، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم ؛ فإذا كانت النفس في غاية البرور ونهاية الخلوص ، وكانت تامة النور وكاملة الشعاع كان توجها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة ، وبهذا وحد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأحسام وتشويه الخلق (بفتح الخاء) ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح ، وسملقة ، وزوبعة ، وسديف بن هوماس ، وطريفة الكاهنة ، وعمران أخي مزيقياء ، وحارثة وجهينة ، وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان»[1] . وينبغي أن نذكر هنا أن من هؤلاء الكهان من كان يزعم أن له تابعًا من الجن ورئيسًا يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم معرفة الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله .

ويقول المسعودي أيضا : «والكهانة أصلها نفسي لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة ، وهي تكون في العرب على الأكثر ، وفي غيرهم على وجه الندرة ، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي ، وقوة مادة نور النفس ، وإذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة ، وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس ، وقلة الأنس بهم ، وذلك أن النفس إذا هي تفردت فكرت ، وإذا هي فكرت تعدت ، وإذا تعدت هطل عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية، ولحظت بالنور الثاقب ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به وعليه ، وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها» [2] .

ذكر ذلك المسعودي في قرينة كلامه عن أصل ادعاء علم الغيب . ولتمام الفائدة نذكر باختصار ما أورده نفس المؤلف في كتابه المذكور في تحليل مفهوم الكهانة ، وقول الحكماء فيها يقول : «ذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن ، وكانوا يدعون لهم العلوم من الغيوب، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة ، وعلى ما تريد أن يكون منها ؛ لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية ، وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة وهي «الجن» ، تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم كانت قد صفت حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة.

---

(١) مروج الذهب (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م) ج٢، ص١٧٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص١٧٥ .

وذهب قوم من النصارى أن «السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ؛ لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب ، ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب ، ولا أمة خلت إلا وقد كان فيها كهانة ، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات»[1].

وقد خلط الصابئة بين النبي والكاهن فقالوا أن أوريايس الأول وأوريايس الثاني كانا يعلمان الغيب وكانا نبيان ، ويعتقد هذا الفريق أن الكهانة تنبع من التجرد وصفاء النفس وليس من الاستعانة بالجن .

وذهب فريق آخر من الناس إلى أن التكهن سببه نفساني يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس ، وذهب جمهور كبير إلى أن الكهانة تنشأ من صحبة الكاهن لشيطان من الجن يخبره بحكم قدراته الخاصة بالمغيبات ، التي في إمكانه أن يتوصل إلى معرفتها ، ومما لم يعلمه الإنس بعد .

وإلى هؤلاء ترجع الإشارة في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(٦)وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ٧)وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (الجن ٦ - ٩) .

﴿...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام١٢١) .

وقد نفى القرآن أن الشياطين يمكن أن تعلم الغيب بقول تعالى : ﴿... فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(سبأ ١٤) .

ويقول تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام٥٠).

ويذكر المسعودى أيضًا أن بعض العلماء يفسر الكهانة على أنها من فيض الوحي الفلكي. وأن عدداً كبيراً من المتقدمين والمتأخرين يرى أن سبب ظهور الكهانة علل نفسانية ، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة

---

(١) نفس المصدر .

فاقتنصتها وأبرزتها على الكمال[1].

ومن المفيد أن نذكر في هذه القرينة أن الصابئة وهم يسمون أيضا بأصحاب الروحانيات، يؤمنون بأن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا منزهًا عن صفات الحوادث لا يمكن للبشر أن يصلوا إلى جلاله إلا عن طريق الوسطاء الروحانيين المطهرين المقدسين في الجوهر والفعل والوصف وهم مقربون لديه ، وهم يتوجهون إلى هؤلاء الوسطاء عند طلب أي شيء ، فهم بالنسبة لهم أرباب وآلهة . وهم يعتبرون المادة شر وسبب لكل الشرور . وقالوا أنه بالبعد عن الشهوات والرذائل وبكثرة العبادة وتقديم القرابين وتعويم العزائم يمكن أن نصل إلى الله دون واسطة ، بل يكون حكمنا وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة ، وزعموا أن الأنبياء مثلنا تمامًا ولا مزية لنا فنتبعهم . وقد فند الشهرستاني مزاعم الصابئة الباطلة[2] .

وفي كتاب المقابسات تكلم أبو حيان التوحيدي (٣١٢ - ٤٠٣ هـ) عن الكهانة وما يتصل بها من أمور الغيب وعلاقتها بالتنجيم والنبوة ونقل عن أبي سليمان ابن بهرام المنطقي السجستاني (ت حوالي ٣٨٠ هـ) قوله : «الكهانة قوة إلهية توجد في شخص بعد شخص بسهام سماوية ، وأسباب فلكية ، وأقسام علوية ، فإذا توسطت صارت في منصف البشرية والربوبية ، فحينئذ يكون ما يبدو بها مشيرًا إلى غيب أمور الدنيا وإلى غيب أمور الآخرة على حد يكون على سواء. والغلب مع ذلك لأمور الدنيا، لأن الإنسان بالطبيعة أكثر منه بغيرها، في الأعم الأغلب والشائع الأشمل ، فإن تحدرت هذه القوة قليلاً كانت الإشارة إلى أمور عالية شريفة. ومحل النبوة بين أبناء هذه القوة بالترقي والتحدر، وكلما كان التباس النفس بالمزاج الموافق، وكان النور المقتبس من هذه القوة أسطع وأعلى، فعلى هذه (تتبع) قوة المنجم لآثار الكواكب تتبعًا ضعيفًا، لأن الآلة لا تساعده والصبر لا يوافيه، وذلك أنه يتلقى هذه الأمور المنتشرة من تلقاء نفسه ومن ناحية اختياره وقصده، وبحثه وليست قوى الكاهن كذلك، أعني ليست تتبع بل هي كالإلقاء والوحي والسانح والطارئ فإن اجتمعت القوتان، أعني قوة التتبع بالصناعة وقوة الاقتباس بالكهانة، ظهر له كل أمر عجيب، وسمع كل قول غريب»[3] .

---

(١) نفس المصدر ، ص١٧٢ - ١٧٨ .

(٢) الملل والنحل ، (القاهرة ، مطبعة صبيح، ١٩٦٤) ج٣، ص٨٨.

(٣) المقابسات (الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢) ص٢٢٦ - ٢٢٧.

ثم قال : «وعلى ما تبين فإن الكهانة أقوى إذا كان صاحبها لا يشوبها بشيء من الحس، وألقاها على صفائها ونقائها، لأن قوتها تنسكب من المحل الأعلى بنسبتها بالعلة الأولى تامة قوية وصحيحة واضحة» .

ثم سأله أبو حيان « فهل يخطئ الكاهن كما يخطئ المنجم ؟ فقال : نعم وليس الخطأ محالاً منه، لأن قوة الكاهن لا تبلغ الغاية في الخلاص أبدًا بسبب تركيبه الذي هو سبب استحالة ما يحاوره بنفسه» .

ثم سأله أبو العباس البخاري «عن إمكان خطأ صاحب النبوة فأجاب بأنه لا يخطئ ولكنه قد يسهو كما في حديث ذي اليدين (الخرباق السلمي) أحد الصحابة ، وأن سهوه وخطأه لا يقدحان في الحال التي رشح لها (النبوة) ، ووشح بها، وجعل سفيرًا إلى الخلق من أجلها! بل يحرس حراسة إن لم تنف عنه كل الظنة لم تعلقه كل قرفة». فسألة أبو العباس سؤالا آخر : «فهل يخطئ نبي ومعه قوة النبوة من غير أن يستقرها ويعرض للخلق من أجلها ؟ فأجابه : بأن ذلك غير ممكن ولكن النبي، قد يعرض له رأى فيبديه على سبيل الاجتهاد ، لا الوحي كما في حديث تأبير نخل الأنصار ثم رجع عن رأيه ،(عندما شاص النخل و لم يعط ثمرًا) وقال لهم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ولا ما نع من ذلك ولولا قوة التخيل والتفكر موجودة في أشخاص العلماء والبررة ما كان يصح حدس، ولا تصدق نفس، ولا يتحقق ظن، ولا يتوضح وهم. بل هذا أمر في غاية الغلبة والظهور، حتى في كثير من أنفس العوام» [1].

نلاحظ تأثر السجستاني بالفلسفة اليونانية في تحديد مفهوم الكاهن وطبيعة الكهانة وفي ربطه لها بالأسباب الإلهية . والمعروف أن الكهانة التي كانت رائجة في البيئة العربية كانت مرتبطة بالجن والشياطين، وقد نفاها الله تبارك وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم .والكهانة كما أوضحناه كانت محدودة المجال والتأثير ،وأن الكاهن لم تكن له رسالة ، لا عامة ولا خاصة كما لم تكن له بالناس خلطة . هذا و لم يصلنا شيء عن الكهان يمكن أن نقومه بميزان الحضارة والعمران أو نعرضه على ميزان القيم والأخلاق ؛ ولكي نؤكد بالمثال الفرق بين الكهانة وبين النبوة نعرض هنا هذا الحديث الذي دار بين سواد بن قارب الدوسي، وكان كاهنًا في الجاهلية ثم أسلم ، وبين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال ابن إسحاق : «وحدثني من لا أتهم عن عبد الله ابن

---

(١) نفس المصدر ، بتصرف يسير.

كعب، مولى عثمان بن عفان، أنه حدث : أن عمر بن الخطاب، بينما هو جالس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد، يريد عمر بن الخطاب، فلما نظر إليه عمر رضي الله عنه، قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد، ولقد كان كاهنًا في الجاهلية. فسلم عليه الرجل، ثم جلس، فقال له عمر رضي الله عنه : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال له : فهل كنت كاهنًا في الجاهلية ؟ فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خلت في، واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت، فقال عمر : اللهم غفرًا، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا، نعبد الأصنام، ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين، لقد كنت كاهنًا في الجاهلية، قال : فأخبرني ما جاءك به صاحبك، قال : جاءني قبل الإسلام بشعر أو شيعه، فقال: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولحقوقها بالقلاص وأحلاسها» . ومن كلام الكهان وتوابعهم من الجان الذي سجله لنا ابن هشام قبيل الإسلام «يا ذريح (أو يا جليح)، أمر نجيح، رجل يصيح، يقول : لا إله إلا الله » . وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبت للجن وإبلاسها ... وشدها العيس بأحلاسها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن كأنجاسها

قال ابن إسحاق وحدثني بعض أهل العلم : «أن امرأة من بني سهم يقال لها الغيطلة كانت كاهنة في الجاهلية، فلما جاءها صاحبها في ليلة من الليالي، فانقض تحتها ثم قال: أدر ما أدر، يوم عقر ونحر، فقالت قريش حين بلغها ذلك ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى، فانقض تحتها، ثم قال : شعوب، ما شعوب، تصرع فيه كعب لجنوب : فلما بلغ ذلك قريشًا قالوا ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن، فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبته».

ومما جاء في السيرة عن كهان الجاهلية أن كاهن اليمن ، عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر في العرب ذكره قالت له جنب وهي بطن من بطون قبيلة مذحج ، انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبل، فنزل عليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائمًا متكئًا على فرس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم

جعل ينزو، ثم قال : «أيها الناس إن الله أكرم محمدًا واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل» ثم اشتد في جبله راجعًا من حيث جاء . قال ابن إسحاق «فهذا ما بلغنا من الكهان العرب»(١).

هذه النصوص واضحة وقاطعة في أن القرآن يختلف تماما عن كلام الكهان في النظم والتراكيب ، والمفاهيم والمضامين والأغراض ، وأن كلام الكهان إنما هو مقصور على حوادث بعينها وهو يتكون من جمل قصيرة ويعتمد على السجع وعلى الإيغال في الصياغة والإبهام في العبارة بما يتناسب مع غموض الكهانة واعتماد الكاهن على قوى الشياطين أو الجن ، أو على قوة حدسه . وليس في هذه النصوص أو في غيرها أن محمدًا كان كاهناً أو أنه كان معروفًا للكهان أو معدودًا منهم و لم يحدث أن تقدم إلينا أحد كهان العرب بدعوى تثبت زعم الزاعمين ، بل إن من الكهان من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ونبذ كهانته ظهريًّا كما أوردناه آنفًا .

وفي هذه القرينة فإنه من المفيد أن نذكر أن كتب اليهود والنصارى قد خلطت بين مفهومي الكهانة Soothsayer or Divination والعرافة fortunetelling وبين النبوة Prophethood وبين النبي Prophet والكاهن soothsayer والعراف fortuneteller من جانب آخر . وقد وردت الإشارة إلى العرافة والكهانة في العهدين القديم والجديد ففي دانيال ،على سبيل المثال جاء «وفي السنة الثانية من ملك نوبخذ نصر حلم نوبخذ نصر أحلامًا فانزعجت روحه وطار عنه نومه فأمر الملك بأن يستدعي المجوس والسحرة والعرافين ، والكلدانيين ليخبروا الملك بأحلامه ... وهددهم الملك أن يقطعهم إربًا إربًا إن لم يفسروا له حلمه» ووعدهم بالجوائز النفيسة إذا أفلحوا في تفسيره .

وقد تم تفسير الرؤيا على يد دانيال (دانيال ٢ : ١ - ٤٩) وفي سفر العدد ٢٣ : ٢٣ - ٢٤ «الله أخرجه من مصر له مثل سرعة الرئم ، إنه ليس عيافة على يعقوب ولا عرافة على إسرائيل في الوقت يقال عن يعقوب وعن إسرائيل ما فعل الله. هوذا شعب يقوم كلبوة ويرتفع كأسد . لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى» .

ومما ينبغي ملاحظته أن كتب العهد القديم قد أعطت اهتمامًا كبيرًا بالعرافين والكهنة .

وقد وجه التلمود عدة تهم إلى المسيح عليه السلام منها أنه كان يعمل بالسحر

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج١ ص١٨٨.

والكهانة .

The Jewish Talmud Contains accusations implying that Jesus had employed sorcery [1] وقد ارتبطت العرافة إلى حد كبير بالأعمال الباطنية، في الديانة اليهودية ، وبالرغم من هذا فقد جاء في هذه الكتب نصوص بتحريم العرافة والكهانة[٢] .

أشرنا فيما سبق الي أن العرب في الجاهلية قد عرفوا الكهانة وأنهم كان لهم علم بما يصدر عن الكهان من كلام مسجوع ، وهموا أولاً أنه من نوع ما جاء به القرآن فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن . قال فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال فقرأ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠)وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قال فقلت كاهن ، قال : فقرأ ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣]. ومن الواضح أن هذه الحادثة قد وقعت قبل أن يعلم عمر بإسلام أخته فاطمة وزوجها ، وقبل أن يداهمهما في دارهما وهما يقرآن أوائل سورة طه ، وقد توقفا عن القراءة خوفًا منه عندما شعرا به ؛ ويبدو من إصرار عمر رضي الله عنه على معرفة ما كانت أخته وزوجها يقرآنه أنه كان متأثرًا بالموقف السابق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك جاء إعلان إسلامه سريعًا على غير ما كان يتوقع منه آنذاك بحكم الطبع المتأصل ، والوثنية المتمكنة ، وبحكم الموقف العام الذي اتخذته قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دعوته .

لم يكن ما قاله عمر في القرآن قبل إسلامه هو موقف جميع العرب ، إذ لم يكن للكهان كلام له بلاغة القرآن ولا تأثيره في النفوس ، ولم يهتم أحد من العرب بحفظ كلام الكهان أو روايته أضف إلى ذلك أن كاهنًا من الكهان لم يحدث بكهانته ما أحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته ، وإنه لمن المعلوم أن العربي جد حفي بلغته وآدابها ، يؤثرها ولا يؤثر عليها ، ولنقرأ هذا النقد البليغ الذي يبين لنا الفرق بين نظم القرآن ونظم الكهان . وهو للوليد بن المغيرة الذي كان تجربة واسعة ، وخبرة

---

(1) Merrill C. Tenney, (General Editor) The Zondervan Pictoral Encyclopedia of the Bible(U.S.A. The Zondervan Corporation, 1975) vol.2 P. 148.

(2) Ibid .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج١ ص٢٤٣وابن كثير ، مختصر تفسير، ج٣، ص٥٤٦، ابن الجوزي ، صفة الصفوة، ج١ ص٨٣ - ٨٤، ابن حجر ، الإصابة ، ج٢ ص٥٧٣٦.

عميقة ، وحس لغوي رفيع بين أترابه من بلغاء العرب. ذات يوم اجتمع إلى الوليد ابن المغيرة نفر من قريش وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ويرد قولكم بعضه بعضًا ، قالوا فأنت يا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا: نقول كاهن ؛ قال : «والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو (أي القرآن) بزمزمة الكاهن (أي كلامه الخفي) ولا سجعه ؛ قالوا : فنقول مجنون ؛ قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ؛ قالوا: فنقول شاعر ؛ قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ؛ قالوا : فنقول ساحر؛ قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ؛ قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصلها لعذق[القنو من النخل ،والعنقود من العنب]، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك»[1]. وقد رد القرآن على الوليد بن المغيرة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠)ثُمَّ نَظَرَ(٢١)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤)إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(المدثر ١٨ - ٢٥).

وقد جاء عن ابن عباس في ذلك رواية أخرى قال «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر ، فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة (يعني محمدًا) فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهزي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا ، وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل ابن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال الوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالاً وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر

---

(١) ابن هشام سيرة ، ج١ ص٢٤٣-٢٤٤ ابن كثير ، مختصر تفسير، ج٣ ص٥٧٠ .

يؤثر، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (الآيات من سورة المدثر)، وفي رواية قتادة أن الوليد بن المغيرة قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر فأنزل الله ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[1] ، فهذه الروايات تؤكد أن الوليد كان قد رجع عن رأيه وأنه غير موقفه تجاه القرآن ، وأنه إنما بنى وجهة نظره في القرآن على علم وخبرة تامتين في معرفة أسرار اللغة العربية وأساليبها المختلفة. وبالرغم من أن الوليد قد غير موقفه المنصف من القرآن ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرضاء قومه ، وللإبقاء على وحدة صف المشركين فإنه قد بين لنا على الأقل الفوارق الجوهرية بين الكاهن والساحر والشاعر، وأكد أن كلام الله في القرآن يختلف تمام الاختلاف عن كلام هؤلاء جميعًا ، وعن كلام غيرهم من الإنس والجن ، وذلك من حيث الشكل ومن حيث المضمون ، وفوق هذا كله فإن القرآن يختلف تمامًا عن الكهانة من حيث الهدف والغاية، فالقرآن إنما جاء لبناء الأمة وإرساء قواعد الملة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وما أبعد صفات محمد صلى الله عليه وسلم وخصائصه الإنسانية العليا أن تشبه صفات الكاهن أو الساحر أو الشاعر ، وما أبعد الفرق بين القرآن وبين سجع الكهان .

بعد أن أوضحنا مفهومي الكهانة والعرافة وبينا حدودهما وآثارهما الاجتماعية المحدودة فهل يمكن بعد ذلك أن يزعم زاعم بأن محمدًا كان كاهنًا أو عرافًا ؟ وبخاصة أنه قد استبان لذي عينين أن تاريخه غير تاريخهم ، وحالته النفسية والبدنية والعقلية غير حالتهم، وطريقته وأسلوبه في الكلام وفي الحياة غير طريقتهم وأسلوبهم، واتصاله بالناس واتصال الناس به غير اتصالهم ، وآثاره في التاريخ وفي الأنفس غير آثارهم . ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده أوردنا كلام الوليد بن المغيرة الذي فرق فيه بين النبي ، والكاهن ، والعراف ، والساحر ، وكيف أن أساطين البيان العربي قد وافقوه على قوله وإن خالفوه لشدة خطر الاعتراف به على مشركي مكة . ونفهم من كلام ابن هشام أيضًا أن الكهان في العرب كانوا يقابلون الأحبار عند اليهود والرهبان عند النصارى . ألا سحقًا لميزان المستشرقين الشائل والمعكوس الذي يسوي بين التبر والتراب ، وبين أواني النضار وأواني الفخار . وبين الدرر والزرر (خشبات أو أصداف) . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالكهانة قط ولا بالسحر البتة ، بل إنه لم يكن له

(١) نفس المصادر .

اتصال بهؤلاء أو هؤلاء أبداً ، إنه لم يدع علم الغيب ، لا قبل ولا بعد الرسالة، ولم يشتغل كذلك بتعبير الرؤى والإخبار عن المخبئات .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم للصدق محلاً ، وللطهر موطنًا ، وللعفة والأمانة مجلى ومظهرًا ، صدق وعف ، والتزم الأمانة وتميز بها بين قومه منذ نعومة أظافره ، وحتى أتاه اليقين . وبالرغم من مؤهلاته الإنسانية العليا وخلائقه الربانية المثلى . لم يتمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم يفكر البتة أن يكون زعيمًا أو نبيًا رسولاً ، وإنما جاءته الرسالة اختيارًا من الله تعالى له ، ولذلك رأينا كيف أنه في البداية لم يفهم كلام جبريل ، ولا مقصوده من دخوله عليه الغار حتى كرر عليه السؤال وأبان له وجه الحكمة من الزيارة عندما قرأ عليه قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (سورة القلم ١-٥)، عندئذ فقط أدرك محمد صلى الله عليه وسلم أنه انفتح له عالم آخر ، وحدث له اتصال بالملأ الأعلى ، وتم له لأول مرة حفظ آيات من سطور اللوح المحفوظ الذي فتح له من تلقاء عالم الغيب وتنزل عليه من رحموت الملكوت ، وحتى تلك اللحظة لم يجزم النبي صلى الله عليه وسلم تمامًا بأن ما جاءه كان هو جبريل عليه السلام ، وبأن ما سمعه كان هو القبس الأول والكلام البكر المتنزل من عند الله العزيز الحميد .

يقرر القرآن ذلك في أكثر من آية ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة ٤٢) .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى ٢٤).

ومعنى ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ عند قتادة وفريق من المفسرين أي « ينسيك القرآن » وفي هذا الكلام رد على مقالة الكفار وبيان بإبطالها وذلك كأنه يقول وكيف يصح أن يكون محمد مفتريًا وهو بمرأى من الله ومسمع ، وهو قادر أن يختم على قلبه فلا يعقل ولا ينطق ولا يستمر افتراؤه[1].

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(٨٥)وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ(٨٦)وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ

---

(١) عبدالحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . (قطر ، إحياء التراث، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ج١٣ ص١٦٤.

إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(القصص ٨٥-٨٧)، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ(٤٧)وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨)بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٧-٤٩) ، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(١٩٥)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦)أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧)وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ(١٩٨)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩)كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠)لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾(الشعراء ١٩٢-٢٠١) .

القرآن والحديث يكذبان دعوى الكهانة :

ذكرنا من قبل أن كلام الكهان لا يخرج عن كونه أسجاعًا يعبرون بها عما يريدون من أغراض محدودة ومفاهيم ضيقة جدًا حرجة لا تعدو مجال التعبير عن بعض حاجات الناس التي يتلهفون على معرفتها وينشغلون بالبحث عنها، وهي حاجات اجتماعية لا تمت إلى الدين غالبا بصلة ، أما بيان القرآن فإنه أجل وأجمل ومعانيه أعمق وأوسع ، ومجالاته أكمل وأشمل، وتراكيبه أدق وأروع ، إن كل كلمة في القرآن جاءت تبعًا لمعنى ، وتوضيحًا لمفهوم ؛ وللقرآن رسالة وسعت أطرافها العلوم والمعارف الجمة والتامة . وقد وصف الله تعالى القرآن بأحسن الأوصاف وأشار إلى عظيم نعمائه في تعليم البيان ، وعظيم منته في تقويم اللسان فقال: ﴿الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ الْقُرْءَانَ(٢)خَلَقَ الإِنْسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن ١ ،٢)، فالله هو الذي خلق الإنسان وعلمه القرآن يعني أعانه على حفظه وفهمه والعمل به ، ولسر عظيم أتبع الله هذه الآية بقوله: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن ٤)، فالله هو الذي علم الإنسان البيان ، يعني القدرة على الإعراب عما في ضميره بطرق بليغة مفهومة ومفهمة، وأنه كما يستمد القمر نوره من الشمس بحسب النظام الدقيق الموضوع في الكون فكذلك الإنسان يستمد علمه ونوره من القرآن الذي هو كلام الله تعالى. يقول عز وجل : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١٣٨).

ومدح الله القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام، وحكمة الإبلاغ، وسماه لذلك «فرقانا» فقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان ١)، ويقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢). ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩). وقال : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء ١٢).

وعن حال ووضع البيئة اللغوية التي نزل فيها القرآن فقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، كما ذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال : ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب ١٩). وقال : ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم ٩٧)

ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم . ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون ٤) . ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة ٢٠٤) . هذه بعض الآيات التي تبين عظمة كلام الله تعالى ، وأعماقه المشعة الجميلة ، وبحاره الذاخرة المديدة ، وأبعاده النورانية الجليلة .

أما عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان كلامه غير مسبوق ، وغير منافس فيه، لم يسبقه إليه عربي ، لا شاعر ، ولا كاهن ، ولا قصاص ، ولا خطيب ، ولا صاحب أمثال ، ولم يأت بمثله عجمي ، ولم يدع مثله أحد من أصحاب مثل ذلك الكلام الذي كان مستعملاً وسائرًا بين الناس في عصره صلى الله عليه وسلم ، وقد وصف الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بيانه صلى الله عليه وسلم بقوله : «وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (سورة ص ٨٦)» .

فكيف وقد عاب (أي رسول الله صلى الله عليه وسلم) التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ،

وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل بز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج (أي الفوز) إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يطئ ولا يعجل ، ولا يحصر.

«ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أصدق لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرًا» .

ويقول الجاحظ أيضا : «ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط بل كذلك يرون المتظرف والمتكلف للغناء ، ولا يكادون (أي العرب) يصفون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها قال قيس بن خطيم :

فما المال والأخلاق إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود

وإني لأغنى الناس عن متكلف يرى الناس ضلالاً وليس بمهتد

وقال بن قميئة :

وحمال أثقال إذا هي أعرضت عن الأصل لا يسطيعها المتكلف

ونختم هذا الكلام النافذ في إظهار محاسن وفرائد كلامه صلى الله عليه وسلم بقول يونس بن حبيب الذي رواه محمد بن سلام عنه قال : «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم»[1] .

دعوى انتقال علوم اليهود والنصارى إلى محمد :

ننطلق من هذه الدعوى الهشة إلى دعوى أخرى هشة مثلها تتصل بهذه المقدمة الطويلة التي مهد بها الكاتب للحكم على القرآن بالانتحال وعدم الأصالة ، وعلى محمد بأنه هو مؤلف القرآن وناظمه . يشير رودينسون إلى الحروب والنزاعات التي كانت تقع بين الفرس والروم في المنطقة العربية وكان اليهود - على ما يزعم الكاتب

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت. دار الكتب العلمية) ج١ ص٥-٦ وج٢٣ ص٩.

- عنصرًا فاعلاً واضح التأثير فيها. ثم يقول رودينسون بعد ذلك: « ليس هناك شك في أن أخبار هذه الوقائع قد أحدثت تأثيرًا كبيرًا في المنطقة . ولقد انتشرت هذه الحوادث انتشارًا سريعًا وقويًا بين اليهود وبعض فرق النصارى ، وإن الأوضاع الاجتماعية التي تساعد عادة على ظهور وشيوع مثل هذه الأخبار بين الناس كانت حد متوفرة . وإن أي فرد من أهل مكة ممن كان له اهتمام بمعرفة مثل هذه الأخبار كان يمكنه بسهولة أن يسأل عنها اليهود أو النصارى الذين كانوا دائمًا على استعداد تام أن يشرحوا قواعد وأمور دينهم للآخرين، أما بالنسبة للنصارى فإنهم للأسف كانوا يعرفون القليل عن ديانتهم وذلك لأنهم كانوا في معظمهم تجارًا فقراء ، أو حزارين أو حدادين أو حجامين (يعني يشتغلون بالحجامة التي تشبه الجراحة في العصر الحديث) أو باعة متجولين ، أو باعة حمور وعبيد بسطاء ، والذين لم تكن لهم رابطة أو هيئة تنظيمية تجمعهم أو كنيسة أو قسيس. أضف إلى ذلك أنهم كانوا ينتمون إلى فرق مختلفة ، كل فرقة منهم تدعي أنها على الحق وأن من عداهم هراطقة ومبتدعة . وكذلك فإنهم لم تكن لهم خبرة جيدة بعلم الكلام أو اللاهوت النصراني لأنهم كانوا من عوام النصرانية وبسطائها . وربما كانت لهم صلوات بسيطة وقليلة، وربما كانت لديهم بعض النسخ المحرفة أو المشوشة للكتاب المقدس بالإضافة إلى بعض القصص الجميلة المقتبسة من العهدين القديم والجديد .

أما اليهود على الجانب الآخر فقد كانوا يشتغلون بالزراعة ومستقرين ، وكانوا بالتالي منظمين جدًا ومتواجدين في أنحاء الجزيرة العربية بشكل واضح ، ولكن جماعاتهم كانت منغلقة على نفسها ومتماسكة إلى حد بعيد . أما في مكة التي كان أهلها مشغولون بالتنافس في التجارة وكانوا يخافون من تصاعد القوة السياسية لهذه التجمعات النشطة والحيوية - يعني تجمعات اليهود - والذين كان العرب يسخرون منهم لأنهم كانوا يأكلون دهن سنام الجمل ، وكذلك كانوا يسخرون من لغتهم العربية الرديئة التي كانوا يخلطون فيها الألفاظ العربية بالألفاظ العبرية. أضف إلى ذلك أن تواجدهم في هذه البلاد كان نادرًا بالمقارنة إلى غيرهم . ومع هذا فلم يكره اليهود، أو ينفروا من رواية ما في كتبهم المقدسة لصالح العرب الوثنيين الذين كانت لهم ميول لمعرفتها ، وكذلك معرفة القصص الموجودة في الكتاب المقدس ، وقصص التلمود ، وكل المادة التي تحتوي عليها المدراش[1]. والتي نقحها وأضاف إليها كتاب العصر

(١) التلمود : ومعناه بالعبرية التعليم أو مجموعة التعاليم، ويشتمل على آراء وتفسيرات أحبار اليهود، وهو في-

الهلليني والروماني ، والتي ساعد البعض منها على وضع الوحي (اليهودي) وما يتعلق به من موضوعات في متناول المتلقين العرب ، وذلك عن طريق تقديم بعض الحوادث والقصص في إطار أو محيط عربي ، أو عن طريق إعطاء وجهة نظر يهودية لحكايات عربية شهيرة». ثم يقول رودينسون: «إن لدينا دليلاً قرآنيًا لا يعارض على أن محمدًا كان قد اتهم بأنه كان يتلقى العلم من أشخاص يتكلمون لغة أجنبية» . ويستشهد على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣) ، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(٤)وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٤ ، ٥)

إن السيرة النبوية خصبة ، ومليئة بما يدحض أقاويل المفترين ، لكن الكاتب يأبى إلا أن ينقر ليلتقط منها ما هو خارج عنها أو مقحم عليها مما يخدم غرضه ، أو هو يأخذ من ثمرها الطيب ثم يشوهه بتفسيراته المادية وبعنصريته ، و يمعن في تشويهه ليصد الناس عن الانتفاع به ، فهو على سبيل المثال يترك رد القرآن على دعوى الكفار ، ولا يلقي بالاً لإجماع المفسرين وعلماء المسلمين في شرح معنى الآية ، ولكنه يتعلق فقط بدعوى الخصوم ويسلم جهلاً منه أو عنادًا ومكابرةً بصحتها ، ويتطوع دون ما حاجة للتدليل عليها محاولاً تأصيلها وتحسينها كبرًا من عند نفسه . فهو لم يراع جلالة الرد الإلهي على دعوى المبطلين الجاهلين كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٢) . هذا الرد الجميل والمفحم لم يرق رودينسون ، وإنما راقه أن يأخذ بدعوى الكفار المعاندين التي رجعوا عنها وأبى هو وأشياعه إلا أن يتعلقوا بها، ويعضوا عليها بالنواجذ أبدًا .

أما نظر هذا الكاتب أو لجأ إلى من يعلمه النظر الصحيح لمعرفة سر كلام الله تعالى، وكيف ذكر سبحانه هذه التأكيدات القوية لإثبات إلهية القرآن والتي تتجلى في قوله :

-حجم دائرة المعارف ضخمة. تمتد فترة تأليف التلمود إلى ما يقرب من الألف عام ، ويوجد تلمودان : التلمود الفلسطيني والتلمود البابلي. وينقسم التلمود إلى المشنا وتعني المعرفة ، وهي عبارة عن المتن ، والجمارا ومعناها الإكمال أو التتميم وهي شرح المشنا . وأما المدراش فهو مجموعة ضخمة من تفسيرات الأحبار للتوراة وهي الكتب الخمسة الأولى من كتب العهد القديم ، انظر نور شريف عبدالرحيم رفعت. دراسات في مقارنة الأديان (القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة ١٤١٧هـ ١٩٩٧) ص١٠١ - ١٥٢.

﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾، و﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، و﴿بِالْحَقِّ﴾، و﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يعني أنه لا مجال بحال للوسيط البشري في نقل الوحي القرآني ، ولا دخل للملاك ، ولا للنبي فيه ، ولا سبيل للشيطان إليه ، وكيف يا ترى حدد هذا الكاتب بظنه هوية هذا الشخص الأعجمي المشار إليه في الآية ، ونحن لا نعرف شيئا عنه ، وقد اختلفت الروايات حتى في تحديد اسمه ونوع مهنته ، ولسنا نعرف كذلك أنه كان في مكة يهود، ومعلمين أو دورًا للتعليم ، أو حركة علمية كما يزعم الكاتب ، يضاف إلى ذلك أن كتب اليهود والنصارى لم تترجم قط إلى اللغة العربية إلا بعد قرون من وفات محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفه علماء الأديان عندنا وعندهم ؛ فمن أين يا ترى جاء العلم بها إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولو أن أصحاب الدعوى الأصليين كانوا على يقين لتحدوا محمدًا وأحرجوه بإظهار هذا المعلم البشر المزعوم ، كما تحدوه واضطهدوه في كثير من المواقف . ويطبق رودينسون نفس المعيار على آية سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(٤)وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ٥)قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الفرقان: ٥ ، ٦)

فالكفار قد ادعوا أن القرآن ﴿ إِفْكٌ ﴾ افتراه محمد ، وأنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أي طلب أن تكتب له ، لأنهم كانوا يعرفون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد وصف الله تعالى قول الكافرين المعاندين بالظلم والزور . ونسأل الكاتب هل يعتقد في كتبه المقدسة ، تلك التي يباهي بها ، على ما فيها من إدخالات ووضعيات ، أنها فرى ، وأساطير ؟ إذا كان يرى ذلك في كتبه فله ما يرى ، ولكننا نحن المسلمين نعتقد ونقتنع بأن القرآن كلام الله الذي أوحى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكفل بحفظه وهيأ كل الأسباب لصيانته وسلامته من التحريف .

يقطع رودينسون بأن محمدًا قد استمع إلى بعض تعاليم وحكايات يهودية بإمعان شديد ، ثم إنه في ضوء هذا الذي سمع استطاع شيئًا فشيئًا أن يضم بعضه إلى بعض ويكون منه صورة عن العالم وتاريخه. فقد أخبر اليهود والنصارى محمدًا عن نفس الإله الواحد ، « الله » الذي كان يعبد أيضا في المنطقة العربية على نفس الخط مع الآلهة الأخرى . الله الذي خلق السموات والأرض ، وإليه يرجع كل ما في الطبيعة من بدائع ومعاجز ؛ وظواهر مثل العواصف والرياح ، والرعد والبرق ، والمطر والزلازل

والبراكين . وإلى الله أيضا يرجع خلق جسم الإنسان المعجز في تركيبه ، وأسرار توالد الحيوانات ، وسائر الأسرار المبثوثة في مملكة النبات، إنه تعالى سوف يعيد الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، بعد وفاته ، وإن رم رفاته ، وسوف يتولى القضاء الأخير بين عباده يوم الدين ، يثيبهم أو يعاقبهم بحسب أعمالهم وطرائقهم في الحياة الدنيا ، سواء بالنعيم أو الجحيم ، بالجنة أو النار . ويتفق رودينسون مع المستشرق الاسكتلندي وات في الزعم بأن محمدًا قد تأثر أيضًا بالحكايات العربية القديمة التي كان العرب يحفظونها ويرددونها كقصة عاد وثمود ، وما أوقع الله بهم من عقاب . وقد ذكرت في الرد على مونتجمري وات في كتابي: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، الذي أعده للطبع، أن وات إنما لجأ إلى هذا القول التمويهي ليملأ به الفراغ الذي لم تستطع أن تملؤه دعوى انتحال محمد من كتب اليهود والنصارى التي تولوا كبرها ، وذلك لأن القصص القرآني ليس مشابهًا للقصص المذكورة في الكتاب المقدس في كثير من الموضوعات ، لا في النوع ، ولا في التفاصيل ، ولا في الأسلوب كذلك ؛ فمن أين جاء محمد بها إذن ؟ هذا ما حاول وات والمتأثرون به أن يجيبوا عليه. بمثل هذا الزعم المتهافت.

يمضي رودينسون في قراءة التاريخ الجاهلي والإسلامي فيفسره على هواه ، وبالطريقة المغلوطة التي تخدم أغراضه العنصرية ، وعداءه للعرب والمسلمين فيقول: «إن عربيًّا كمحمد لا بد وأن يكون قد سمع كل هذه القصص والأحداث ، وتأثر بها » .

ويزعم كذلك أن اليهود والنصارى كانوا مدعومين بإمبراطورية قوية وغنية وكانت لهم هيئات منظمة ومؤثرة ، وقد أسسوا دعاواهم على كتب مقدسة نزلت عليهم من السماء منذ زمن طويل ، وقد عرف هذان الفريقان الله ، ذاته وصفاته ، كما عرفوا العبادات المختلفة من صلاة وصيام ، وقرابين . وبهذا يتجاهل الكاتب الفروق الجوهرية والتاريخية بين التصور اليهودي للإله وبين التصور المسيحي له.

المنطق المعكوس ودعوى تأثر محمد بمسيلمة الكذاب :

ينتقل رودينسون بعد ذلك ليتكلم عن اعتزاز العرب الجاهليين بدينهم ،وذلك في إطار دعوى مسيلمة الكذاب للنبوة وموقف أهل الجزيرة العربية منه ، فيقول :«أما العرب فلم يكن لهم علم بهذه المؤسسات والمعاهد العلمية ، ولا بالكتب المقدسة. (كاليهود) بل كانوا حريصين على وثنيتهم التي كانت لهم بمثابة القومية ، ولذلك فلم

يسمحوا بظهور أي عقيدة مخالفة لعقيدتهم ، بدليل أنهم اضطهدوا الحنفاء ولاحقوهم حتى أسكتوهم . وكلمة حنيف ربما كانت بالنسبة لعرب الجاهلية تفسيرًا خاطئًا لكلمة آرامية بمعنى « الكفار ».

ويبدو أن الخيوط التي جمعها الكاتب من الروايات الضعيفة ليلفق منها فرية أخرى قد نفدت قبل أن يصل إلى تمام غرضه ، فطار بصره وطوح في الآفاق حتى وقع على مسيلمة الكذاب فوجد فيه طلبته فصوره ندًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوى بين مزاعم مسيلمة الكذاب ودلائل نبوة محمد صلي الله عليه وسلم ، وجعل رسالة خاتم النبيين مساوية لدعوى شيخ الكذابين مسيلمة ، الذي لم يأت إلا بما يضحك الثكالى ، ويزيد أهل البلايا بلايا ورزايا (ص٦٧).

أما عن قصة هذا المتنبئ الذي يرفعه مكسيم رودينسون إلى مكانة خير المرسلين ، فإنه قال لبعض السذج أنه قد أشرك في الأمر(أي النبوة) مع محمد ، ثم جعل ينسج لهم الأساجيع ، ويقول لهم كلامًا سمجًا حاول أن يحاكي فيه النظم القرآني . ومن كلام مسيلمة الغث على سبيل المثال: «لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاة وحشى»، «إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر»، «والطاحنات طحنًا ، والعاجنات عجنًا ، والخابزات خبزًا»، وهذا الكلام من قبيل سجع الكهان ، وإنه لا يدنو قط من نظم أو بيان القرآن ، وإمعانًا في الكيد للإسلام فإن مسيلمة قد أحل لأتباعه الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة[1].

وقد كتب هذا المائق الكذاب رسالة بعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رجلين من أتباعه وهذا نص الرسالة : «من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله : سلام عليك ، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشًا قوم يعتدون» . ولما جاءا رسولا مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ صلى الله عليه وسلم الخطاب سألهما : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول ما قال (أي مسيلمة) فقال صلى الله عليه وسلم: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» . ثم كتب النبى عليه السلام في الرد على مسيلمة «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب :

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص١٦٤ وانظر أيضًا محمد عبدالعظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٠) ج٢ ص٣٣٤ - ٣٣٥.

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». وكان ذلك في آخر سنة عشر للهجرة[1]. إلا أن رودينسون يشكك في التاريخ الذى كتبت فيه هذه الرسالة في معرض دفاعه عن مسيلمة . ولكي يؤكد رودينسون دعوى تأثر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الكذاب ، فإنه يزعم أن مسيلمة قد سبق محمدًا صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة ، وأن محمدًا بالتالي قد تأثر به وأخذ عنه ، وهذا محض افتراء، واجتراء .

وقد انتهى أمر مسيلمة واندثرت دعواه وبقى الإسلام راسخاً وشامخاً يملأ القلوب بنوره وينشر العدل والسلام والإخاء في ربوع العالمين بتعاليمه السمحة والسامية.

إنني لا أكاد أتصور أن كاتبًا كمكسيم رودينسون يمكن أن يستخف بنفسه وبقرائه إلى هذا الحد، ويهمل منطق العقل وواضح النقل في الفصل في قضية واضحة وظاهرة، وذلك عندما يزعم أن مسيلمة كان ينشر نفس التعاليم التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان نبياً مثله ، بل وكان متقدمًا عليه في دعوى النبوة كما أشرنا إليه. (ص٦٧).

ويستمر نفس الكاتب قائلاً أن محمدًا قد هاله هذا التغيير الذي حدث بين العرب بسبب الإسلام ، وهذا الانقلاب في القيم الاجتماعية التي ظهرت في حياتهم نتيجة للتعاليم التي جاءهم بها محمد، وأنه لذلك بدأ ينتقم من الأغنياء لشعوره بالمهانة التي ظلت تلازمه منذ الصغر حيث ولد يتيمًا وعاش فقيرًا إلى أن تزوج بخديجة فأغنته بمالها، وأنه تأثر أيما تأثر باليهودية والنصرانية إلا أنه ظل مع ذلك عربيًّا ، ولم يقطع صلته بإخوانه من العرب، وأنه اتخذ ما وقع في الكون من حوادث عظمى كدليل على نهاية العالم الحاضر ، ومجئ يوم القيامة وذلك حتى يثبت صدق دعوته وصدق تنبئه . ٦٧و٦٨) .

إن الكاتب يتهم محمدًا بأنه إنما فعل ما فعل من دعوة الناس إلى الحق ، وإقامة شرع الله انتقامًا من الأغنياء وحقدًا عليهم ، وهذا تفسير مادى ماركسى تكذبه طبيعة الإسلام كدين وكتاريخ في الواقع ونفس الأمر . ويفسر رودينسون ما ورد فى القرآن الكريم من نبوءات حول نهاية هذا العالم بمجئ يوم القيامة تفسيرًا ماديًّا كذلك ، فيقول أن محمدًا (وليس الله) هو الذي قال ذلك بناء على تجارب ومشاهدات ، وليس بناء على وحي أو إلهام .

(١) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص١٨٣ .

وهذا تفسير خاطئ وزعم باطل لأن كل ما جاء في القرآن هو كلام الله وليس كلام محمد ، وأن كلام الله عن يوم القيامة وما سيقع فيه من أحداث ووقائع عظمى يفنى على أثرها هذا الكون إنما هو حق لاريب فيه وأن الإيمان به ركن ركين من أركان العقيدة الإسلامية.